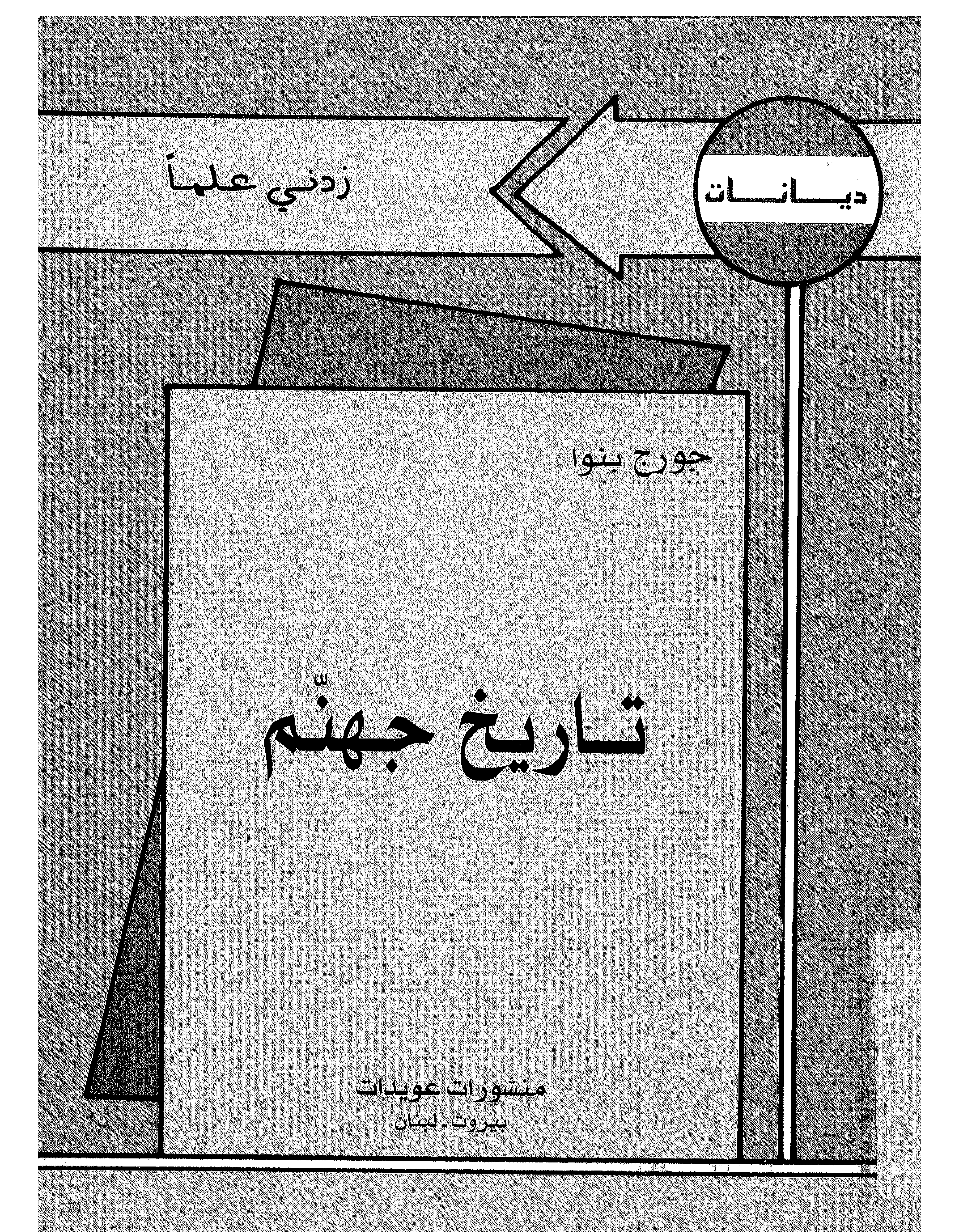

ديـــانـــات
زدني علماً
جورج بنوا
تــاريخ جهنّم
منشورات عويدات
بيروت. لبنان

تـاريخ جهنّم

Publié dans le cadre du programme d'aide à
la publication «Georges Schehadé».

جورج مينوا

تاريخ جهنّم

تعريب

أنطوان إ. الهاشم

منشورات عويدات
بيروت ـ لبنان

الطبعة الأولى 1996

تقديم المعرب

تاريخ لجهنم؟!... ولمَ لا.!...

لقد عوَّدتْ دارعويدات للنشر قراءها العرب على كل طريف وممتع ومفيد، ومهّدت أمامهم سبل الوصول إلى نتاج الفكر الإنساني على اختلاف فنونه وألوانه؛ وكل ذلك عملاً بالشعار الذي اتخذته منذ البداية ألا وهو «زدني علماً»، خدمة للمثقف والثقافة التي هي من أعظم عوامل الرقي والقوة والظفر.

ولعل الكتاب الذي بين يديك أيها القارىء الكريم هو من أطرف الموضوعات وأجرئها. ولا يخلو نقله إلى اللغة العربية من بعض المغامرة... قبل الأديان السماوية ونزول الوحي ولدى بعض الشعوب التي لم تتعرف إلى دين التوحيد، كانت جهنم وحدها هي العالم الآخر، ولم يرد أي ذكر للسماء والنعيم بالمعنى المعروف حالياً. وكانت الحياة بما فيها من حركة وضجيج ومعاناة وظلم وعنف ورعب وحقد وانتقام... كانت كلها تنتقل إلى العالم الآخر، إلى جهنم، حيث تصفّى حسابات هذه الدنيا تصفية فيها من الأهواء والثورات ومن جنوح الخيال ما قدر لخيال الكهان والرائين أن يجنح.

وحتى بعد نزول الوحي وتدخل الله مباشرة في تنظيم شؤون خلقه، وانقسام العالم الآخر بين جهنم وسماء وبين جحيم ونعيم، بين جنة ونار، ظلت جهنم تحظى

بالقسط الأوفر من خطب الدعاة ومواعظ المبشرين . وبينما لم توصف الحياة في السماء إلا ببضع تعابير قليلة محدودة غامضة ، يرددها الطيبون الصالحون ، ظهر ما دعي بالأدب الجهنمي الذي خط سطوره كل عبقري وفنان وفيلسوف وعالم وشاعر «ملعون» و «شيطان رجيم» .

فما معنى كل هذا؟ ! ألأنّ الإنسان جبار يتعشّق الحياة الصاخبة والتبديل والتغيير والبناء والتدمير وقد وجد في جهنم ضالته وألفى السماء رتيبة مملة ، أم لأنه جبان يذعن للترهيب أكثر مما يصغي إلى الترغيب ، فكان على خدام الوحي وحماة الإيمان أن يعملوا في هذا الإتجاه؟ !

لكن لا يخفى أن كثرة من الناس آمنت بخيرات الجنة إيماناً صادقاً فأحبتها حتى العشق والهيام ، حتى التتيُّم فاستعجلت هذه النعم بالاستشهاد على طريق الجهاد ؛ ولكن ما أقل هذه الكثرة إذا ما قيست بما تعداده عدد نجوم السماء ورمال الصحراء من سائر خلق الله .

ختاماً ، نتمنى لك أيها القارىء العزيز أن تجد في هذا الكتاب تسلية وفائدة وموضوع تأمل وعبرة ، كما نتمنى لك ، بعد عمر طويل أن يبعد عنك نار جهنم ويمتعك بحياة النعيم في أخداره السماوية ولو كنت ستشكو شيئاً من الملل ، وعلى الله الإتكال .

أنطوان الهاشم

مدخل

إن فكرة جَهَنَّم أو الجحيم هي سمة ثابتة لكل الحضارات . نجدها في أقدم النصوص البشرية مرتبطة بالمفاهيم الدينية الأولى ، كما نجدها في الكتابات المعاصرة الملحدة . وجهنم مكان كئيب مشؤوم يقع في العالم الآخر أو هي حالة ضيق وغم وجوديين نعيشها بدءاً بهذه الحياة . وهي متعددة الأشكال وقابلة للتكيّف تبعاً لنماذج الحضارات .

هي قديمة قدم البشرية الواعية ومرتبطة بالحالة الإنسانية التي تلقي فيها عذاباتها وأحقادها وتناقضاتها وعجزها كما أن الجنة هي تسامٍ لآمالها ، لأفراحها وإرادتها السعيدة ؛ وجهنم ، سواءٌ كانت ، أو لم تكن ، مرتبطةً بالعقاب والدينونة ، وسواء كانت أزلية أم عابرة ، فهي مرآة لفشل كل حضارة في حل مشاكلها الاجتماعية وهي مصدر الغموض في الحالة الإنسانية . وطالما ظل الإنسان عاجزاً عن حل لغزه الخاص فإنه سيتصور جهنماً ما . وإن أكمل النماذج التي تصورتها الحضارات لجهنم منذ بدايات التاريخ وأكثرها منهجية وأشدها تيئيساً وأمثلها هو جهنم المسيحية . إنها عذاب مطلق تغشى الحواس الخمس والروح بما تثيره من وخز ضمير ومن وعي لأبدية العذابات . وجهنم المسيحية التي هي تصور منطقي بحت داخل المنطق الأفلاطوني الحديث ، والمخصوص بالهالكين ، هي نقيض ديانة خلاصية راغبة في احترام الحرية الإنسانية . وهي تنطبق على مصير الذين ينفصلون عن منبع الخير المطلق ، ومن هنا فرادتها وقوتها .

وقبل جهنم المسيحية بزمن طويل تخيلت بعض الأفكار الدينية حياة العالم الآخر . وإن هذه الحياة ، بالنسبة إلى أكثر الأفكار ليست سوى تتمّة للحياة الأرضية في «مكان آخر» غير محدود ، يتابع فيه تعساء هذه الأرض ارتشافهم لكؤوس العذاب . فلا تمييز ولا انفصال في هذه الجهنمات المُعدَّة للجميع ، بين الأخيار والأشرار ، ولكنها امتداد كئيب للمصير الأرضي لكل واحد منهم . إن النضوج المتطور للضمير الأدبي هو الذي توصل شيئاً فشيئاً إلى أن يفرد جهنم للأشرار ، وقد كانت في البداية مؤقتة ثم أصبحت أبدية مع المسيحية .

إن المرحلة المعاصرة هي عودة جزئية إلى المفهوم البدائي . فمن جهة يؤدي انحطاط المعتقدات التقليدية والكنيسة إلى إثارة الشكوك حول جهنم المسيحية ، التي تزداد تخفّياً وغموضاً في بيانات الإيمان الرسمية ، ومن جهة أخرى فإن نسبية المعلومات عن الخير والشر تزيل الفروقات بين جهنم والجنة ، اللتين استعادتا مكانهما على هذه الأرض في جَدَلية الغموض . وتبدو جهنم وكأنها تعاش كأحد عناصر الوجود ، نتيجة التجاذب بين حاجات الفرد وحاجات الجماعة . وإذ يقف كل فرد من الناس بين مطرقة تحقيق الذّات وسندان مضايقات الضغوط الاجتماعية يجد أنه يحمل في داخله جهنمه ، إذ هي مادة دراسات علماء النفس والمحللين النفسيين وعلماء الاجتماع والفلاسفة بعد أن كانت وقفاً على اللاهوتيين . وتاريخ جهنم هو تاريخ الإنسان في مواجهة قدره الخاص . لأن الإنسان كما رآه بعض مفكري الماضي يحمل في ذاته ، بالقوة ، المصيرين النقيضين ، اللذين يفعلّهما بالتناوب أو في آن معاً . وهذا ما كتبه ملتون في القرن السابع عشر في «الفردوس المفقود» «الفكر هو مكانها الخاص ، وفي ذاته يستطيع أن يجعل من جهنم جنة ومن الجنة جهنم»[1] .

---

(1) The mind is its own place, and in it self.
Can make a heaven of hell, a hell of heaven (V 247)..

الفصل الأول

جهنم في الحضارات الشفهية

يبدو من المستحيل ، بخلاف المظهر ، الإبتكار الواعي للاهوت الكاثوليكي ، الذي خط جاك لوغوف[1] تاريخه المشرق ، أن نحدّد منشأ جهنم أو الجحيم . فإذا كانت النصوص الأولى التي تتحدث عنه يعود تاريخها إلى الألف الثاني قبل الميلاد فمن المحتمل أنّ عصر ما قبل التاريخ لم تغب عن باله هذه الفكرة . لقد ظهرت ممارسة تحنيط الجثث حوالى 50 000 سنة ق .م . ولا شك أنه قد صاحبه اعتقاد باستمرارية الحياة بعد الموت ، أي «جهنم» بالمعنى الشائع للمكان الذي تستمر فيه النشاطات الأرضية . ولم ترافق هذا الإعتقاد أية فكرة عن الثواب والعقاب ، في غياب محتمل للقانون الأخلاقي ومفهوم المسؤولية ، وليس ثمة من دليل الآن يحدد طبيعة جهنم ما قبل التاريخ .

وعلى مقربة زمانية منا تتيح بعض الحضارات المرتكزة فقط على التقاليد الشفهية اكتشاف بعض ملامح المعتقدات القديمة العهد عن جهنم . فهذه الحضارات البعيد جداً بعضها عن البعض الآخر في الزمان والمكان وفي بنياتها الاجتماعية تتحدث عن كثير من الجهنمات الكثيرة الشبه . إنها أمكنة إقامة للجميع ، كئيبة عادة ، تستمر فيها

(1) J. Le Goff, La naissance du Purgatoire, Paris Gallimard, 1981.

النشاطات الأرضية تحت أشكال شبحية . والطريق التي تؤدي إليها مزروعة بالفخاخ والأحابيل على شكل اختبارات تدريبية ، والهالكون هم أولئك الذين في حياتهم الأرضية أو عند موتهم ، لم يحترموا الطقوس ، حراس التماسك الاجتماعي ، أو الذين وُصموا بالنجاسة . فهؤلاء يُطرَدون خارج الحياة العادية في جهنم ويُحكَم عليهم بالتَشرُّد خارج المجتمع الذي لم يحترموا قوانينه . أما الآخرون ، المندمجون في المجتمع ، فلقد تقرر مصيرهم أثناء حياتهم الأرضية ووضعهم في الجحيم لم يتغير .

I ـ أفريقيا السوداء

إن بعض الأمثلة عن شعوب السباسب التي وراء الصحراء تؤكد هذا التصور . فجهنم قبيلة السيرير (Sérère) في السنغال ، هي في هونولو (Hunulu) ، في باطن الأرض ، وهو مكان مشؤوم حيث يفقد الإنسان قواه شيئاً فشيئاً . ولقبيلة الديولاس (Diolas) في المنطقة ذاتها مفهوم طريف أكثر ارتباطاً بالفكرة الأخلاقية ، وهي أن الإنسان مُركَّب من ثلاثة أقسام ، قسم صالح وقسم شرير وقسم ممتاز . وعند الموت يتلاشى القسم الشرير والقسم الممتاز يذهب إلى الجنة ويعود القسم الصالح من جديد إلى الحياة . والمصير الذي ينتظر الميت يتعلّق بنسبة هذه الأقسام بعضها إلى بعض ؛ فإذا كان القسم الشرير هو الغالب ، يتلاشى الإنسان نهائياً .

غير أن الحياة تستمر أكثر الأحيان في جهنم ، كمرآة للحياة الأرضية ولكن مع تحول الليل نهاراً والنهار ليلاً ، وانعكاس اليمين يساراً واليسار يميناً . وتُلاحَظ جماعة من المنبوذين الهالكين يقيمون حالياً دون أن يتلقوا أي عقاب ، إنهم الهامشيون من كل نوع : المجانين ، المعاقون جسدياً وعقلياً والمتوفون وهم في وضع شاذ أو دَنس : نساء إبَّان النِّفاس ، فتيان أغرار سذَّج ، غرقى ، منتحرون ، مصعوقون ، ضائعون . وإن هؤلاء ، في غينيا ، عند شعب الكيزيس (Kisis) في «بلاد الأشرار» في أحشاء الظلمات .

إن قضاء الله ينزل بأولئك الذين ، بطريقة أو بأخرى ، لا ينسجمون مع الجماعة ؛ وإذ كانوا منعزلين على الأرض فلقد ظلوا منبوذين من مقر الأموات المعهود ، دون أن يصابوا بعذاب أليم .

II ـ جهنم عند الشمانيين[1]

تتيح ممارسات الشمانيين معرفة محتوى جهنم هذه بشكل أفضل ، وقد تمّ التعرف إلى هذه الممارسات بفضل أعمال ميرسيا إلياد بنوع خاص ، ويمكن العثور عليها عند شعوب عديدة ومتنوعة وعادة عند الشعوب نصف المترحّلة والجبلية في التيبت وآلتاي وغينيا الجديدة ومنغوليا ، وعند هنود أميركا الشمالية وقبائل التانغوز (Toun-gouzes) واليوراك (Yuraks) في سيبيريا الوسطى .

من بين هذه الشعوب شخص على معرفة مباشرة بجهنم : هو الشامان الكاهن العارف والمسلّح بقوى خاصة تسمح له ، خلال طور من الإنخطاف قد يدوم ثلاثة أيام ، أن ينحدر بالروح إلى مملكة الأموات ليصحب روح المتوفّى ويساعدها على اجتياز العراقيل المنصوبة في طريقها ، ولدى عودته يقدم عرضاً عن رحلته ويطلع الناس على تجاربه .

وهكذا نعرف أن السفر الجهنمي ، بالنسبة إلى هذه الشعوب ، مزروع بالفخاخ ، وأكثر ما يتكرر منها اجتياز جسر ضيق جداً وغالباً ما يكون بعرض الشعرة ، يمتد فوق هاوية سحيقة حيث يسقط القليلو الخبرة . أما مصير الذين لا يجتازون الحواجز فهو غامض . وهم عند التتار يقاسون عذابات يغرّمهم بها الشياطين . وليس العقاب عقاباً أخلاقياً : إنه مسألة تلقين وتدريب . والذين يتيهون هم أكثر تعاسة وجهلاً وحماقة مما هم أشرار . وبإمكان كل إنسان أن يبلغ الجحيم باعتماده على دليل حاذق ، والآلهة أنفسهم هم الذين أرسلوا الشامان الأول ليقوم بهذا الدور . وعند التيبيتيين وقبائل الموسو في يونّان تُبسَط خارطة أمام الميت لتدله على طريق جهنم المحاطة بتسعة أسوار تفصل ما بينها جسور يحرسها الشياطين . ثم بعد أن يجتاز المتوفى سبعة جبال من ذهب يصل إلى شجرة «طب الخلود» .

وقد تعتبر تجارب الرحلة كمراحل تطهير . وعند شعوب الألتاي على الإنسان أن

(1) الشمانيون هم فئات دينية موطنها آسيا الشمالية وأميركا الشمالية تمارس الاتصال بالأرواح عن طريق الإنخطاف الروحي ــ م ــ .

يجتاز مسافات شاسعة وصحارى وجبالاً ومحيطات وسهوباً قبل أن ينحدر في ثقب يوصل إلى سبعة أدراج هي حواجز أو پوداكات (Pudaks) يشوبها طابع تدريبي . ثم يصادف الجسر الشهير وأخيراً قصر أرليك خان ، ملك الجحيم الذي تحرسه الكلاب . والمسار نفسه نجده عند سكان أوستراليا الأصليين حيث تمثّل بعض الرسوم سفَرَ النفوس . فالطريق بطولها مزروعة بالعراقيل . ويسهّل الياكوتيوز[1] والمونغوليون والأتراك الشرقيون السفر باستخدام أمواتهم الأجنحة .

وتختلط جهنم بالجنة لدى جميع هذه الشعوب . والذين يصلون إلى هذه الأماكن التحتأرضية التي تحدها بدقة أسوار جبارة يتابعون أعمالهم الأرضية ، ويحترمون التسلسل الاجتماعي . ويحدد الإنسان أثناء حياته على هذه الأرض وضعه في العالم الآخر ؛ كل ذلك يحدث على الأرض . ففي الجحيم يبقى الأقوياء أقوياء . وعند الشعوب المحاربة ، كالمنغوليين ، يقوم بخدمة الميت كل الذين قتلهم على هذه الأرض . ولدينا هنا ، في الواقع ، معتقد عام لدى كل الديانات وهو أن الأبدية تصنع على هذه الأرض .

وينصبّ الخلاف على معايير اختيار ما وراء القبر . والعنصر الحاسم في جميع هذه الحضارات التقليدية التي تعيش وضعاً اقتصادياً كثيراً ما يكون عابراً والمهدَّدة بكل أنواع الأخطار الخارجية ، هو اتحاد الجماعة . الهامشيون وحدهم ، أي غير المندمجين والذين لا يسهمون في معيشة الجموع ، هم الذين يعزلون بعيداً . وأما عند الأسكيمو مثلاً ، فالصيادون الفاشلون يرسلون إلى مكان تحت الأرض حيث يتضورون جوعاً . بينما يذهب المنتحرون ، الذين لعملهم قيمة التضحية التي تقدرها الجماعة حق قدرها ، إلى أسمى سماء مع الأبطال .

وأما ما تبقى من الجماعة فيحتشد في مكان محايد . في جهنم دون أي تمييز . وكان هذا الإعتقاد القديم لدى شعوب آسيا الوسطى قد أذهل الرحالة المسيحيين الأولين مثل الفرنسيسكاني جان دوپْلان كارپان (J. de Plan Carpin) فكتب في القرن الثامن عشر :

---

(1) سكان ياكوتيا أو ساخا وهي جمهورية في الاتحاد الروسي تقع في شرقي سيبيريا .

«إنهم لا يعرفون شيئاً عن موضوع الحياة الأبدية والعقاب الدائم . فيعتقدون أنهم بعد هذه الحياة ، سيعيشون في عالم آخر وأنهم هناك سيزدادون عدداً ويشربون ولا يعملون إلاّ ما كانوا يعملون وهم أحياء في هذا العالم» .

III ـ أميركا ما قبل كولومبس

إن التأقلم الثقافي الاجتماعي الذي أثاره المرسلون الكاثوليك في الحضارات الكبرى لما قبل كولومبس جعل من المستحيل معرفة المعتقدات التي تعني العالم الآخر . والشهادات التي جمعت في ذاك العصر هي شديدة التأثر بالمسيحية . وهكذا عندما اعتنق غارسيلا كودوالا ڤيغا (من قبيلة الأنكا) الدين المسيحي وسيم كاهناً في نهاية حياته أكد أن شعب الإنكا كان يؤمن بوجود جحيم من العذاب للأشرار ، فمن الممكن أن يشوّه المفاهيم الهندية الحقيقية ؛ ولكن كما يبدو أن جحيم الإنكا هذا كان مؤقتاً على أي حال :

كان الإنكا يؤمنون بأنه بعد هذه الحياة حياة أخرى تجلب العقاب للأشرار والسعادة للأبرار [. . .] ؛ ويدعون باطن الأرض أوكوپاشا (Ucu Pacha) ، أي العالم السفلي المعد مسكناً للأشرار ؛ وبتعبير أفضل كانوا يعطونه اسماً آخر هو كوپايپا هواسين (Cupaipa Huacin) أي ما معناه «بيت الشيطان» . وكان الإنكا يؤكدون أن الحياة في العالم السفلي الذي نسميه جهنم مليئة بجميع الأمراض والشرور التي تصيبنا في هذه الدنيا ولا وجود لأي راحة أو رضى [. . .] . وكانوا يؤمنون أيضاً بقيامة شاملة دون أي تصور لمجد أو لشقاء ، ولكن لحياة شبيهة بالحياة التي نعيشها على هذه الأرض لأن عقلهم لم يكن يسمو فوق هذه الحياة الحاضرة (تعليقات ملكية على پيرو الإنكا) .

ونجد عند المايا جحيماً للجميع قائماً تحت الأرض لا يحتوي على أي نظام عقائدي . أما مصير الموتى عند الأزتيك فهو أكثر تنوعاً . إنه خاضع لنوع الوفاة وليس للمسلك الأخلاقي ، وجهنم التحتأرضية عندهم هي الميتلان (Le Mitlan) حيث يحكم ميكتلا نتكوهتلي (Mictlantecuhtli) وشريكه ميْكتلانسيهواتكْ (Mict-lancihuatl) . ويبلغ الميت جهنم بعد سفر طويل شاق ، يصل في نهايته المحاربون

الذين قتلوا في المعركة إلى منطقة الشمس الشارقة والنساء اللواتي توفين أثناء الولادة إلى منطقة الشمس الغاربة ، والأولاد الذين ماتوا في سن الصغر إلى مكان حيث الأشجار تتخذ شكل أثداء ، ويقيم الغرقى والمصعوقون في بيئة نضرة خصبة تدعى تلالوكان (Tlalocan) .

وانقلبت هذه المفاهيم على أثر فرض المسيحية وقوانينها الأخلاقية واللاهوتية . وراح الدومينيكان واليسوعيون يعلّمون أن هنود ما قبل الفتح جميعاً هم إلى خلود في جهنم العذاب لأنهم لم يعرفوا الدين الحقيقي . وأصدر مجمع ليما المنعقد سنة 1551 أمراً إلى الكهنة بأن يعلموا الهنود أن «جميع أسلافهم وحكامهم هم الآن في مقر العذاب لأنهم لم يعرفوا الله ولم يعبدوه أبداً ، لكنهم عبدوا الشمس والحجارة ومخلوقات أخرى» .

وقد أثار هذا الإعتقاد القاسي الذي يبرره التأكيد أن «لا خلاص خارج الكنيسة» نقاشاً حاداً داخل الكنيسة الكاثوليكية ، وقد عاشت صدمة قوية بسبب الهنود . وكشفت الأبحاث التي أُجريت حول حالات الهذيان والرؤى لدى الهنود المكسيكيين أن أكثر من نصف هذه الحالات الهذيانية أو الكحولية على علاقة وثيقة بجهنم . ويكشف اصطدام الحضارتين التناقض بين جهنم التقليدية المحايدة المكيفة تبعاً للحاجات الأرضية غير المحققة لدى كل فرد ، وجهنم المسيحية الزاجرة .

IV ـ جهنم الجرمانيين والسكندنياڤيين

ونرى التباينات نفسها في أوروبا الشمالية مع جهنم الشعوب الجرمانية ما قبل المسيحية . فالمفردات تترجم هنا عن التناقضات وتكشف في الوقت نفسه عن دخول بعض الملامح الوثنية في المفاهيم المسيحية . فجهنم الجرمانية هي الـ «هِلْ» أو «المكان الخفي» عالم مظلم تحتأرضي ، بارد يغشاه الضباب يتيه فيه الأموات . وهذه اللفظة هي التي ستستخدم لتسمية الجحيم في الإنكليزية (Hell) وفي الألمانية (Höll) وهي لفظة قريبة من كلمة ثقب (Holl و Höhle) ، في حين أن الكنيسة تفرض في البلدان اللاتينية كلمة (Infernum) التي تعني المكان السفلي و (Inferi) لجهنم الوثنيين .

وجهنم هناك أيضاً (لدى الجرمانيين والسكندنياڤيين) مكان بعيد مقفل يمكن

الوصول إليه بعد سفر طويل معرض للأخطار ، وهو بأغلبيته سفر بحري . ويبدو أنه بعد تطورات كثيرة حدث التمييز بين مصير مختلف الأموات وقد يكون ذلك تحت تأثير عناصر خارجية . وتوحي «تنبؤات نبيّة» وهي قصيدة متأخرة ، بدينونة وعقاب على الأخطاء المقترفة على هذه الأرض . بيد أن الوظيفة الاجتماعية هي المعيار الأساسي للتباين : يصبح الڤالهلاّ (Walhalla) ، مقر المحاربين الأموات ، قصراً فخماً حيث يقيم المحاربون الحفلات والولائم بصحبة أودان (Odin)[1] .

ويُترجم نصر الطغمة العسكرية المتطور بتنظيم العالم الآخر بما يتفق مع الأخلاق الحربية .

والدخول إلى مملكة الأموات عند السكنديناڤيين والسلتيين هو أسهل بكثير ، وكثيرٌ من الأبطال الأحياء استطاعوا أن يزوروها بعد سفر محفوف بالتجارب التدريبية ، سفر تحت الأرض كالذي قام به البَطَلان نرًّا (Nerra) وكونّ (Conn) . وسفر إلى ما وراء البحار كسفر بران (Bran) وكونلا (Connla) ووازان (Oisin) وكاشولين (Cachulain) . إن النماذج الجهنمية التي تصنعها هذه الأساطير ليست أمكنة للعذاب ، فجميع الموتى يقيمون فيها بلا تمييز أخلاقي . إن الطرافة هنا هي في هذه الألفة بين العبور من عالم إلى آخر وهذه سمة ثابتة في العالم السلتي التي لا تزال مستمرة في الأساطير المسيحية للقديسَين براندان وپاتريك . ويمكن أن يحدث أن أبطالاً يذهبون إلى استعادة أشياء ثمينة من جهنم هذه كالقدر التي لا تنضب .

وتبدو جهنم السكنديناڤية ، كما تروي أقدم الحكايات الميثولوجية ، أكثر رعباً من جهنم السلتية . ولكن يمكن على حد سواء ، ارتيادها كما فعل بعض الأبطال مثل هادينغوس (Hadingus) وهرمود (Hermod) ، لإنقاذ بعض الأشخاص . والسفر التدريبي يتضمن ، فيما يتضمن ، اجتياز نهر وجسر ، والهبوط يتضمن تسع طبقات تحت الأرض وجهنم هي في مركز الأرض والإقامة فيها شؤم وكآبة ، ولكن ذاك هو نصيب جميع الناس .

تنطبق هذه السلسلة الأولى من الجهنمات على مجتمعات مشركة تعيش في اتحاد

(1) آلة الحرب عند الجرمانيين ويدعى بالإلمانية ڤوتان (Wotan) وهو ساحر (شامان) ومحتال ـ م ـ .

تنطبق هذه السلسلة الأولى من الجهنمات على مجتمعات مشركة تعيش في اتحاد وثيق مع البيئة الطبيعية وفي حالة اقتصادية تشكو العوز والفاقة . إن تضامن الجماعة هو عنصر ضروري للبقاء ويترجم بممارسات جماعية . وفكرة الخلاص أو الإدانة الفردية هي غريبة عن هذا التنظيم . ولا يمكن أن يكون مصير الفرد منفصلاً عن مصير سائر الجماعة . ولا يمكن تصور الحياة في العالم الآخر إلاّ بطريقة جماعية . وليس لمفهوم العقاب من معنى في هذا السياق . فجهنم هي إذاً مكان محايد ، تتابع فيه الجماعة مشاغلها الأرضية في محيط مظلم وكئيب عادة ؛ وينظر إلى مصير الأموات نظرة تشاؤمية ولكن دون أن يتعرضوا إلى عقاب أليم . وإن الذين يطردون خارج الجماعة في هذه الحياة ، والذين كانوا بلا نفع للشعب ، والذين فاتتهم طقوس التدرب على ممارسة الدين التي ترسِّخ التحام الجماعة ، هؤلاء وحدهم معرَّضون لمصير خاص وهم ضحايا عقبات السفر إلى مقر الأموات .

ولم تظهر فكرة جهنم كمكان للعذاب والعقاب إلاّ مع الحضارات الشرقية الكبرى ذات القوانين الأخلاقية المتطورة والفردية .

الفصل الثاني

جهنم في الديانات الشرقية القديمة الكبرى

وتظهر جهنم ، بمعنى مكان للتعذيب تقوم به قوى خارقة الطبيعة بعد الموت ، للاقتصاص من الناس الذين انتهكوا القانون الأخلاقي ، في جميع الديانات الكبرى الثابتة والمنظمة التي تقدم مثالاً إنسانياً فردياً يحتذى . وجهنم بهذا المفهوم هي وسيلة «إصلاح» لكل الذين ، بطريقة أو بأخرى ، لم يتكيّفوا في حياتهم مع هذا المثال ، وثمة دائماً تقريباً علاقة بين الخطيئة التي يقترفونها ونموذج العذاب الذي يتعرضون له والذي من شأنه أن يعيد تكييفهم .

والفرق الأساسي بينها وبين جميع الجهنمات التي وصفناها هو وجود دينونة ، يتولى أمرها الآلهة . في حين أنه في الحالات الأولى ، يَعزِل الفرد نفسه بنفسه ، أما مصيره هنا فيحدده سادة البشرية الذين يقوّمون درجة تطابقه مع المثال . إنه مفهوم مرتبط بمجتمعات أوسع وأكثر استناداً يؤجل عملها إلى العالم الآخر . ويشكل عام تبدو فكرة الدينونة بعد الموت مرتبطة بظهور مفهوم الدولة ، أي نظام سياسي منظم مرتبط ارتباطاً وثيقاً ، في المرحلة الأولى ، بمفاهيم دينية تكمل وتقوي وتنجز السلطة السياسية . إن الأخطاء والجرائم ضد المجتمع تعاقبها في الوقت نفسه على الأرض عدالة الحاكم وبعد الموت عدالة الآلهة استناداً إلى المعايير نفسها . والسلطة الثانية تكمل الأولى لأن لا شيء يستطيع التفلت منها . والعدالتان متكاملتان على حد سواء بمعنى أن النظام الاجتماعي لا ينفصل عن النظام العالمي : إن النيل من الأوّل يعني التشويش على الثاني ، وعدالة الآلهة تكمل عدالة الملوك .

ولدى الديانات الشرقية الكبرى عادة مفهوم دوري للزمن العام الشامل . وجهنم هي بالتالي مؤقتة . وسيعاد دمج الهالك في دورة التقمصات الكبرى ، التي توفر له فرصة حياة جديدة أكثر انسجاماً مع المثال . ولكن داخل هذا المخطط الكوني تظهر مفارقات خطيرة .

I ـ جهنم بلاد ما بين النهرين

من بين أقدم النصوص الأدبية العالمية التي تتحدث عن جهنم هي الألواح الأكادية من الألف الثاني ق .م . إنها تروي الحوار الذي جرى بين البطل غلغامش وصديقه انكيدو الذي صعدت روحه من الجحيم . فالرؤيا محزنة : تتيه الأرواح في مكان مظلم مشحون بالغبار ، فيبوح انكيدو قائلاً :

«إن جسدي الذي كنتَ تلمسه مبتهجاً التهمه العث مثل ثوب عتيق

إن جسدي الذي كنتَ تلمسه مبتهجاً هو مليء بالغبار» .

إن جهنم ، للوهلة الأولى ، مكان عام لكل الناس كما في الحضارات الشفهية السابقة . ولكن ، إذا نظرنا إلى الأمر عن كثب ، نستنتج أن بعض الأرواح هي أتعس من سواها : فالنماذج البدائية من الهالكين (edimmou) هي الأشخاص الذين كان مصيرهم على هذه الأرض تعيساً أو الذين خرجوا على القوانين ، مثل : الذين أصيبوا بحوادث قاتلة ، وضحايا الحرب ، والذين لم يتسنَّ لهم أن يُوارَوا في أضرحة والذين لم يرزقوا أولاداً للعناية بقبورهم والغرقى والنساء اللواتي توفين أثناء الولادة والفتيات المدركات اللواتي متن عذارى ، والزانيات اللواتي قضين بسبب الأمراض .

فهذه النماذج من الهالكين (edimmou) لا تخضع للتعذيب ولكنها ، لكونها نفوساً ساخطة ومُحْبَطة ، تجتر مرارتها فتصبح عدوانية وشريرة ، يعذب بعضها بعضاً وقد تعود أحياناً إلى الأرض فتنغص على الأحياء عيشهم . وهكذا فهم جلاّدو أنفسهم في جحيم تُشدَّد الرقابة عليه فلا يفلت منه أحد . إنه عقاب فعلي ، لأن حالة هذه الكائنات التعيسة التي أصابها العقم وهي على قيد الحياة وتعرضت للأحداث والأمراض والفقر ، وذلك نتيجة لعدالة ثابتة هي عبارة عن عذابات تنزلها بهم الآلهة نتيجة أعمال سيئة خفية . وتكشف بعض الألواح السحرية الأكادية أن الذين يصابون

بشرٌ ما يذهبون إلى العرّاف ليطلعهم على سبب تعاستهم . فيخضعون عند ذاك إلى استجواب مفصّل يشبه محتواه ما نراه في كتب الإعتراف في الدين المسيحي . فتذكر عشرات الخطايا الخاصة وأعمال انتهاك الحق العام قد يكون بعضها قريباً مما وصفته شرائع حمورابي الشهيرة التي يعود تاريخها إلى سنة 1750 قبل الميلاد :

«هل تفوّه بكلام يثير الفتن ، بكلام مهين؟ هل استعمل ميزاناً مغشوشاً؟ هل اختلس مالاً حراماً؟ هل نقل حدوده إلى أرض جاره؟ هل تسلل إلى بيت قريبه؟ هل اغتصب زوجة قريبه؟ هل سفك دم قريبه؟ ألم يخفف بلوى إنسان يعاني من الضيق؟ هل طرد شخصاً صالحاً من عائلته؟ هل شتت عائلة مجتمعة؟ هل تمرّد على السلطة؟ هل كان فمه صادقاً وقلبه كاذباً؟ هل سار في طريق الشر؟ هل تجاوز حد العدالة؟ هل عمل من الأعمال ما ليس صالحاً؟» .

إن وراء هذا الإستنطاق فكرة فحواها أن كل من يخالف القانون الاجتماعي الذي سنّه الملك ينتهك النظام الإلهي الكوني . فيلحقه في هذه الحياة ، قصاص يحمل أوزاره إلى ما بعد الموت بتعرضه لمصير تعيس . وتقول أغنية بابلية : «أنا خاطىء ، ولهذا أنا مريض» . وإذا لم يحصل العرّاف على مغفرة الخطايا تحل الدينونة بالخاطىء التعيس .

وتوحي بعض الأساطير الأكادية والسومرية التي تعود إلى عصر واحد بأن الأرواح تَمْثُل عند الموت بكل جلاء ، أمام الإلهة . وهكذا فعلى الإلهة السومرية إنانّا (Inanna) ـ عشتار عند الأكاديين ـ لكي تذهب إلى زيارة الجحيم حيث تحكم أختها إرشْكيغال (Ereshkigal) ، أن تعبر سبعة أبواب حيث ينتزع كل مرة ثوب من أثوابها ، فتصل عارية تماماً . وإن ما تقع عليه عيناها لا يبعث إطلاقاً على السرور : «الغبار نصيبهم والصلصال طعامهم لا يرون النور بل يعيشون في الظلمة ، يلبسون كالطيور ، الأجنحة أكسيتهم ، الباب والقفل يغشاهما الغبار» . الأرواح المجنحة تقتات بالوحول . لا أمل لهم بالفرار . سبعة أسوار ضخمة تحيط بجهنم .

ويهوّل العصر الأشوري من أمر منظر جهنم المخيف . وفي رؤيا الأمير كومّا (Kummâ) في القرن الثامن ق .م . تبدو مملكة إرِشْكيغال مأهولة بمسوخ الآلهة :

أنصاف رجال وأنصاف حيوانات ، الأمر الذي يعتبر تقهقراً في ظروف الحياة في العالم الآخر ، ويمكن وضعه على صلة بالهمجية المتنامية في أخلاق القضاة والمحاربين في ذاك الزمان .

II ـ جهنم المصرية

إن الميتولوجيا المصرية هي إحدى أغنى الميتولوجيات في الشرق الأوسط ويتيح لنا امتداد هذه الحضارة على عدة آلاف من السنين والعثور على آلاف النصوص والرسوم الباقية ، أن نلمّ ، بدقة نسبية ، بالمفاهيم الخاصة بالجحيم ، منذ الألف الثالث ق .م .

يعطي المصريون أهمية عظمى لمصير «النفس» التي تتمثل بشكل مزدوج لدى كل إنسان . إنها تقوم ، بعد الموت ، بسفر طويل عبر مناطق غريبة كثيراً ما ترسم خريطتها على ناووس الميت . ثم تصل إلى مكان دينونتها التي تتمثل طقوسها الدقيقة مرات كثيرة بشكل جدرانيات . ويفترض هذا الأمر فصلاً واضحاً بين الخير والشر قريباً مما عرفناه في حضارات ما بين النهرين . إن لائحة الأعمال الشريرة التي نجدها في المؤلّف الشهير «كتاب الأموات» الموضوع في الناووس ، مقتصرة على مجتمع يرتكز العمل الصالح فيه على احترام قواعد الأعمال الزراعية كالري وحدود الأملاك وواجبات الرقيق وعبادة الآلهة والأموات : «لم أرتكب غشاً ضد أي إنسان ، ولم أزعج الأرملة ، ولم أكذب أمام المحكمة . لم أعرف إيماناً فاسداً . لم أفرض على رئيس العمّال من العمل أكثر مما عليه أن يعمل في اليوم . لم أكن مهملاً ، ولم يحدث أن كنت بطالاً ، ولم أنتهك حرمة أيٍّ من المقدّسات . لم أشكُ عبداً إلى سيِّده . لم أجوِّع ولم أبكِ ولم أقتل . لم أسرق أكفان الأموات ولا مؤونتهم ، لم أغتصب أرضاً ، لم أنتزع اللبن من فم الرُّضع ولم أسدّ مجرى قناة» .

ماذا تعني قراءة هذا النص من قبل الميت أمام اثنين وأربعين قاضياً من محكمة أوزيريس بعد أن يزن أنوبيس قلبه وبعد أن يقرأ توت[1] النتيجة؟ ولم تُجمع آراء علماء المصريات على هذه الأمور . غير أنه يبدو من المعقول أن يتعلق الأمر بتطهير طقسي ، بشكل من التعزيم لطرد جميع أنواع الشرور .

---

(1) توت : إله العلوم والآداب والزمن في مصر القديمة ــ م ــ .

إن مصير الموتى الذين استسلموا كلياً لسلطان الشر هو «موت ثانٍ» . ونتيجة ذلك يدعى الهالكون «موتى» بمقابل «المتجلين» الذين ينضمون إلى مملكة أوزيريس . إن سيرورة هذا الموت الثاني غير أكيدة . فغالباً يمثل الأشرار محشورين في أماكن ضيقة ومظلمة حيث يعبق نتن لا يطاق ، يأكلون برازهم ويشربون بولهم ، ويمشون على رؤوسهم ليعبروا بذلك عن أنهم عكسوا النظام الكوني . ويخضع الهالكون ، أكثر الأحيان ، لعذابات تهدف إلى تحطيم الشخص وتحويله إلى عدم ، تغلى أجزاؤه في خلاقين وتحرقها أفاع تنفث ألسنة اللهب ، وتلقى في بحيرات من نار . وقطع أخرى يفترسها أمِّيت (Ammit) ، حيوان مسخ له جسم أسد ورأس تمساح . وتهاجم عناصر الفرد بضراوة : جسده ، ظله ، نفسه (ألبا Le ba أو المبدأ الروحي) . كل هذه الأهوال تجري «في نطاق الإبادة» تحت العالم الأرضي .

ليست العذابات إذاً خالدة . إذ ليس غايتها التنكيل ولكن إفناء الذين غذُّوا قوى الفوضى في الكون والذين أساؤوا بتصرفاتهم إلى النظام الاجتماعي والكوني (Maat) . وغالباً ما يتكون انطباع أن لا نهاية لمسار التقطيع والتدمير ، كما لو كان الشر مستعصياً على التحطيم . واندمجت بعض أشكال التعذيب المصرية في التصورات الأولى للجحيم المسيحي ، حيث ستتخذ مظهر الخلود .

III ـ جهنم الهندوسية

لقد تطور المفهوم الهندي لجهنم من مكان إقامة للجميع إلى عقاب من النوع الأخلاقي . ففي العصر الڤيدي ، في الألف الثاني ق .م . ، كان الأموات يقيمون بلا تمييز ، في مكان تحت الأرض يدعى الكارْتا (Le Karta أي الثقب) والڤاڤرا (Le Vav-ra أي السجن) أو البارْشانا (أو الهاوية) . إنه وجود شبحي كئيب لكائنات لا يبدون أية أحاسيس . ويبرز الفرق الأول في الريغ ڤيدا (Rig Veda) والأثَرْنا ڤيدا (Atharna Veda) حيث كل الذين لا يقع عليهم الإختيار يذهبون إلى مملكة ياما (Yama) سيِّد الجحيم حيث يسوء وضعهم . وكانت قد ظهرت لفظة ناراكا (Naraka) أي جهنم ، بمعنى مكان تعذيب وتنكيل :

وفي نصوص البراماناً (Brâmana) وأعمال المصلح شانكارا (Shankara) ، في

القرن الثامن ، ق .م . تعارض جهنم مع الجنة بما يلائم التمييز بين مختارين وهالكين . ومصدر التعقيد هنا التأكيد على التقمص (samsâra) أو رحلة النفس من جسد إلى آخر ، طالما لم تبلغ بعد النرفانا حالة الغبطة النهائية . ويجب عدم توقع منطق صارم للمعتقد الهندوسي خاص بالعالم الآخر . إنها ديانة مؤلفة من أساطير متقاربة ، لا عقائد فيها ولا مذهب متماسك . وهكذا فجهنم والتقمص لفظتان مختلفتان ولكن معناهما واحد .

فالشرير هو من تطغى عليه رغبة العيش المنفرد ، الذي يسعى في هذه الدنيا إلى المجد والثروة ، كإنجاز شخصي . هو من تطويه الأنانية في ذاته ، في أناه ، ملاحقاً وهماً ، متشبثاً بنهم العيش في حين أن الحياة تعاسة وخداع . إنه يتقمص كائناً أدنى أكثر مادية وشهوانية . أو ربما يذهب قبل تقمصه إلى جهنم ، إلاّ إذا كان الذاهب قرينه (نسخة عنه) : ظله البائس البريتا (Le Preta) «جسد العذاب» الذي ينحدر بسرعة الريح إلى مملكة ياما . ويتضمن السفر الطويل اجتياز مستنقعات وقفار ونهر ڤايتارانيه (Vaitaranê) ، وهو مزيج من دم وقيح وبول . وعند ذلك يتلو الإله سيتراغوپتا (Citragoupta) سجل أعماله الصالحة وأعماله السيئة . فإذا تغلبت أعماله السيئة يذهب إلى جهنم ، إلى النارِاكا .

وهناك يلقى العذاب المناسب لخطاياه الشخصية وتبعاً لخطورة هذه الخطايا . عقاب خاص بكلّ شخص يتميّز بقساوة خارقة وتفنن لا يُصدَّق : يُمزَّق المسكين ، يفسَّخ ، يُسحق ، يُقطَّع ، يُثقب ، يُفترَس ، يُشوى ، يُجَلَّد ثم يتقمَّص . تقسم جهنم إلى عدة منازل مخصصة لعدة عشرات من الملايين كما تروي بعض النصوص . واستناداً إلى البورانا (Pourâna) هناك سبع جهنمات أساسية تزداد عمقاً على التوالي ومقسمة إلى جَهَنَّمات ثانوية . إحداها المدعوة أسيپاترافانا (Asipattravana) أي الغابة ذات الأوراق السيفيَّة الشكل) هي غابة لأشجارها أوراق ذات شفار حادة تقع على الهالك فتحدث له جراحاً وشروخاً كثيرة ، فيعثر ويترنح على رماد حار وتمزقه كلاب مفترسة .

لهذه العذابات التي يتحمل مسؤوليتها الهالك حد ونهاية . إذ يحتفظ دائماً بجزء من إله ، الكرمان (le karman) ، يساعده في حياة جديدة لمقاومة شهوات الحياة .

وقـد تبنَّت الديانات الكبـرى في الشـرق الأقـصى هـذا المخطط العـام مع بعض الحالات الخاصـة . تحتوي جهنم البوذية على ثمانية عشر قسماً من الحرارة والبرودة . وتحصي الديانات الصينية تسع جهنمات . وفي اليابان يُعثَر أيضاً على قراءة الكتاب الذي تدوَّن فيه إحصاءات الأعمال السيئة ووزن النفوس . يقتل الهالكون بعضهم بعضاً ، يُسحقون ، يُفترسون ، يُغرقون .

وفيما عدا التفاصيل التصويرية ذات المنشأ الشعبي فإن كل هذه الجهنمات لها مغزى واحـد ، وهو أن كل من يختار الشر يحطم النظام الكوني الإلهي ، ويُعدّ لنفسه بنفسه مصيراً أخروياً مشوَّشاً من العذابات . لأن الشـر الأساسي هو الفَوضى ، والفوضى هي العذاب . وهذا ما يصرِّح به لاوتسو حوالي سنة 600 قبل الميلاد : «إن من يتحد بالفضيلة ، تستقبله الفضيلة ، ومن يتحد بالشر ، فالشر يستقبله» .

IV ـ جهنم المزدكية

تتميز ديانات إيران القديمة برؤية مزدوجة للعالم حيث تتصارع قوى الخير وقوى الشر .

إن النفس ، استناداً إلى هذه المعتقدات التي يمكن أن نرجعها إلى القرن السابع قبل عصرنا هذا ، تتابع بعد الموت سفرها التقليدي المعروف تقريباً في جميع الديانات ، سفر عبر أجرام السماء والقمر والشمس أو سفر أرضي بقيادة فتاة وكلبين . تصل النفس عندئذٍ إلى جسر توجد عبره مملكة أهورا مزدا ، أي العالم السماوي . هذا الجسر عبارة عن سيف يجتازه الصالح على صفحته والخاطىء على حدّه . وعند ذلك ، واستناداً إلى أحد النصوص المقدَّسة «تقطع الطريق على النفس ، فيقع رأسها أولاً ، من أعلى الجِسْر ، في جهنم ، وتتلقى التنكيل المناسب» .

وقد حدث هنا بالتالي فصل بين الأخيار والأشرار ، هذا المشهد سيؤكِّده بشكل بارز أحد أكبر مصلحي البشرية الدينيين ، كاهن من القرن السابع ق . م . كثيراً ما أسيء فهمه ، هو زارا توسترا أو زرادشت . جاء ذكر مذهبه ــ المزدكية ــ في نصوص الأڤِستا . وإذا لم يكن من المستطاع أن ينسب إليه كل شيء نسبة أكيدة فإن الخطوط

الكبرى على كفاية من الدقة . إن مصير الإنسان بعد الموت تقرره خياراته في هذه الحياة . وإن النفس ، المبدأ الروحي ، والقادرة على الإحساس والانتقال ، تُفصل عن الجسد . وفي اليوم الرابع تواكبها أرواح صالحة وشياطين فتصل إلى مكان الدينونة التي يقوم بها ثلاثة آلهة هم مهْر وراشو وسْروش (Srôsh و Rashu و Mihr) . فتوزن أعمالها بميزان من ذهب وتؤمر بعد ذلك باجتياز «جسر الثواب» . فبالنسبة إلى النفس الشريرة التي فضّلت في هذه الحياة إله الشر أنغرا ماينيو (Angra Mainyu) يتقلص الجسر وتسقط في جهنم .

ولا تعطي ترانيم زرادشت الليتورجية (les gâthâs) أية تفاصيل دقيقة عن مصيرها : «ظلمات تدوم زمناً طويلاً ، طعام نتن ، صرخات يأس وضيق . تلك هي الحياة التي استحقتها أعمالكم الخاصة عدوة الإيمان» . وقد حملت نصوص متأخرة بعض التفاصيل المتنوعة : فبالنسبة إلى البعض تحتوي جهنم على ثلاثة أقسام مخصصة : أحدها للأفكار السيئة والثاني للكلام السافل والثالث للأعمال الشريرة ، وفي الأسفل «ظلمات لا تنتهي» للذين كانوا أشراراً بكليتهم . وهي بالنسبة إلى آخرين ، طبقات مختلفة تتناسب مع ثقل الخطايا : ففي الطبقة العليا ، في (هامستاغان الظالمين) الخاص بالذين لم يكونوا متوغلين في الشرور ، العذاب مقصور على الحرارة والبرودة اللتين تحملهما تيارات هوائية . وفي الطبقات السفلى ، يُحشر الخطأة في ظلمات . وفي برد جليدي ويُطعمون دماً صديداً وقيئاً ولحماً تعج فيه الديدان ، وتعذبهم الشياطين التي تجسِّد الخطايا التي اقترفوها في حياتهم .

عذابات لا نهاية لها ، إن ثلاثة أيام تتراءى كتسعة آلاف سنة ، ولكنها ستنتهي عندما يأتي المخلص «الحي» الذي بعد أن يولد من عذراء يُطهِّر العالم من الشرور بواسطة النيران . وتنتشر هذه الفكرة الأخيرة في عصر البارثيين في القرن الثاني ق .م . مع التبشير بمجيء المطْرا الذي سيولد في كهف من عذراء في الخامس والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر . ويحمل للخير مجداً حاسماً وانتصاراً لأهورا مزدا (Ahura Mazda) .

إنه تصور قريب من التصور الذي نشأ في العصر ذاته في صلب الديانة اليهودية ويتوافق مع شرقية متطورة للوعي الأخلاقي ومع روحنة عبادات الشرق الأوسط .

ولكن تقاليد أخرى هي تقاليد العالم اليوناني ـــ الروماني أعطت تصوراً لنموذجين مختلفين عن جهنم ، ينطبقان على المواقف الفكرية الخاصة بالعبقرية الغربية وهما : جهنم مولودة من تقاليد الشعر الهوميري وأخرى نشأت نتيجة تأمل فلسفي مجرد وعقلاني . ومن لقاء جهنمات الشرق الأوسط وجهنمات اليونان والرومان ولدت جهنم المسيحية .

الفصل الثالث

جهنم الوثنية الكلاسيكية

تحددت في بلاد اليونان ، أم الحضارة الغربية ، الملامح الكلاسيكية للعالم الجهنمي ، وذلك في صيغة شعرية مجازية . أولاً ، مع هسيود وهوميروس ، ثم في خواطر فلسفية حول الشر ومعاقبته . وسواء كانت جهنم اليونانية شعرية أم فلسفية ، فهي ، في النتيجة ، قليلة التديُّن . وهي تواجه ، بصفتها أجوبة إنسانية على مسألة الشر ، جميع الاحتمالات ؛ وهي في أساس كل المفاهيم الجهنمية اللاحقة ، ومن ضمنها أحدثها كجهنم الوجودية .

وفي النتيجة يُنظر إلى هذه الحلول من وجهات نظر أخلاقية وقضائية وشعرية وفلسفية . وهذه الجهنمات هي ، أكثر من سابقاتها ، على علاقة وثيقة بالاهتمامات الاجتماعية والسياسية . وهي ، بهذا المعنى ، أكثر إنسانية بكثير . إن بناة الجهنمات اليونانية ــ الرومانية هم بنوع أخص ، وعلى طريقتهم ، مشترعون وعلماء اجتماع ، يبحثون عن مجتمع مثالي ، فهم إذاً مضطرون إلى إيجاد حل لمشكلة الشر .

I ـ جهنم اليونانية: شعراء وفلاسفة

إن الميتولوجيا اليونانية غنية جداً بهذا الموضوع . وإن أقدم المؤلفات مثل مؤلفات هسيود وهوميروس التي يمكن أن نضعها في حدود القرن الثامن ق .م . ، تُكثِر

الحديث عن جهنم كمكان محض يزوره الآلهة والأبطال . والملك تيزيه[1] الذي حُكم عليه بالجحيم أنقذه منه هيراكليس . وديونيسوس ذهب إلى هناك لإنقاذ أمه سيتيليه . وكاد أورفيه ينجح في إخراج أوريديس منه . بينما يهرب منه ألسيسْتْ بفضل تدخل أدميت وأن تيريسياس وآستيل وعولس قاموا بجولة في هذه الأمكنة .

هل هذه الجهنمات المألوفة ، حيث يمكن الدخول والخروج بسهولة مذهلة ، تعني عامة الناس أم هي مقصورة على الأبطال والآلهة؟ فالتيوغونيا[2] والإلياذة والأوذيسة لا تأتي على ذكر ذلك بوضوح . يبدو الهالكون ، للوهلة الأولى ، وكأنهم ضحايا انتقام الإله زفس الذي يرسل إلى جهنم كل من يخالف رغباته . وجاء في الأوذيسة أن عولس عندما زار الجحيم شاهد تعذيب بعض الأبطال المشهورين :

«ورأيت أيضاً تيتيوس ابن الأرض الممجدة ؛ كان يرقد على الأرض ويغطي بجسده مساحة تسعة فدادين ، وعلى خاصرتيه نسران يمزقان كبده ويغرزان مناقيرهما في أحشائه دون أن يحاول إبعادهما بيديه لأنه كان قد اغتصب صاحبة المجد ليتو (Léto) زوجة زفس فيما هي ذاهبة إلى بيتو (Pytho) عبر پانوپيه، مدينة الجوقات الجميلة . «ولمحتُ أيضاً تانتال (Tantale) الذي كان يلقى عذاباً واقفاً في بحيرة ، وكان الماء يصل إلى ذقنه . وبالرغم من أنه كان شديد العطش لم يكن يستطيع بلوغ الماء . وكل مرة كان هذا الشيخ ينحني راغباً في إطفاء لهيب عطشه كان الماء يهرب منه وتبتلعه الأرض . وعند قدميه كانت تظهر أرض سوداء يجففها أحد الآلهة . وكانت أشجار سامقة الأوراق غَضّتها تدلّي ثمارها فوق رأسه [. . .] ، وكلما كان الشيخ يمد ذراعيه ليقطفها بيديه ، كانت الريح تقذفها نحو الغيوم الداكنة .

ورأيت أيضاً سيزيف يعاني آلاماً حادة : كان يدفع بذراعيه صخرة ضخمة نحو رأس التلة . ولكن كلما كان يجتاز القمة كانت الكتلة الصخرية تقذف به إلى الوراء . ويتدحرج الحجر الوقح ، من جديد ، نحو السهل . وكان سيزيف يعاود الدفع بكل قواه والعرق يتصبب من أعضائه والغبار يعقد هالات فوق رأسه (نشيد XI) .

---

(1) ملك خرافي ، قيل إنه حكم أثينا وأنقذها من نير مينوس بقتله المينوتور ــ م ــ .

(2) Le Thégonie كتاب شعري في الميتولوجيا اليونانية لصاحبه هسيود (منتصف القرن الثامن ق .م .) ــ م ــ .

ويبدو أن الجحيم هو مصير مشترك لكل الناس . واستناداً إلى مؤلفات ڤكتور بيرار ، فإن الفقرة السابقة قد تكون نصّاً حرّف فيما بعد ، في حين أن النص الأولي لهوميروس كان متكتماً جداً حول وجود التعذيب . ولكن على أي حال فإن مفهوم عالم الأموات هذا هو مفرط في التشاؤم ويكشف عن خوف ظاهر لدى المجتمع اليوناني القديم الذي يمجد الحياة الأرضية تحت الشمس . وتقول الإلياذة : «وكان من نصيب هاديس ظلمات ضبابية ومن نصيب زفس السماء الفسيحة» . إن المدخل إلى هذا العالم الكئيب التحتأرضي هو عند نهاية الأرض ، عند المغيب ويثير الرعب . وقال عولس : «كريه مثل أبواب هاديس» . بينما أخيل يصرّح : «أكره مثل أبواب هادليس» . ويقول في مكان آخر : «أفضل أن أكون خادم بقّار فقير على أن أحكم جماعة الظل» . غير أن مصير أولئك الذين لم يحصلوا من الدنيا على قبر ، مثل فطرقل ، والذين لم يُستَقبلوا في الجحيم ، هو أسوأ : إنهم يتيهون بلا مأوى حول المدخل .

إن الجحيم عالم مقفل . يشبِّهه هسيود بجرة عملاقة ، أو بكهف ، والنهر المحيط يفصله عن عالم الأحياء مع روافده : الستيكس والكوسيت والأكيرون جوُّه رطب وعابق بالعفونة . ويعرف الأبرار والأشرار مصيراً واحداً . يقوم بفرزهم قاضيان هما رادا مونْتْ البطل القريطشي وأخوه مينوس ، وكلاهما مشهور بعدالته وحكمته . يبترد الأبرار في مرج من الزنبق أو في «سهل الفردوس» ولكن لا يعرف بأية مواد حوكموا ، وعلى أي حال ، فإن الإقامة في الترتار ، مسكن الطيطان القائم تحت هاديس ، هو وحده نهائي . وآخر ملامح الحذر تجاه العالم الآخر هذا هو أن نفوس الأموات تهدد الأحياء . لقد خَبِر عولس ذلك واضطر إلى الفرار :

«وكانت نفوس الأموات تحتشد في قعر إيريب[1] (Erèbe) : زوجات فتيات ، شبان ، شيوخ حنّكتهم الحياة ، عذارى نضرات لم تذق قلوبهم الرخصة آلاماً أخرى . وكم من المحاربين المثخنين بجراح الحراب المحمية بالبرونز ، ضحايا آرس بسلاحهم الذي يقطر دماً ! كانوا يتوافدون جماعات من كل حدب وصوب حول الهاوية ، محدثين ضجيجاً عجيباً . أمّا أنا فقد قبضني رعب كالح» . (الأوذيسة ، نشيد XI) .

(1) هو تجسيد لظلمات الجحيم . وهو ابن السديم (Chaos) وأخو الليل (Nuit) ــ م ــ .

ونرى هناك خليطاً من الكائنات عرفت مصيراً أرضياً مختلفاً جداً ، وتجمّعت لا فرق بينها . يوحي منظرها بعدم رضاها . إنه مفهوم قريب من مفهوم جهنم ما بين النهرين .

جهنم الأولى هذه ، الشعرية والضبابية ستكون معيناً لأفكار كثيرة في اليونان الكلاسيكية من القرن السادس إلى القرن الرابع . إن منظرها الرائع مصدر وحي للشعراء وكُتّاب المسرح وعلماء الأخلاق الذين توسعوا في فكرة الدينونة بعد الموت . فالإله زفس ، بالنسبة إلى إسخيلوس «يجازي الموتى على الأخطاء التي ارتكبوها ويقاسمه هذا الرأي أيضاً پندار وسوفوكل وأريستوفان» .

والفلاسفة هم أكثر انتقاداً ، وللمرة الأولى بدأ رجال الفكر يعملون تفكيرهم في مسألة الشر المعنوي في منشئه وفي عقابه المحتمل ، في العالم الآخر . وكانت نتائجهم متحفظة جداً . وغالبيتهم عبّرت عن شكها العظيم فيما يخص جهنم . إن الشر ، بالنسبة إلى هيراقليط ، عامل من عوامل التناغم الكوني . وهو بالنسبة إلى لوسيپ وديموقريط رهن بالصدفة ولا يشكل موضوع عقاب وكذلك بالنسبة إلى فيثاغوروس . أما سقراط فيعتبر الشر نتيجة الجهل وهو قصاص لذاته .

وكان أرسطو أكثر تعمُّقاً : إن موت الفرد كونه شاملاً النفس والجسد إذاً فلا وجود لجهنم في العالم الآخر . والإنسان بتعلّقه ، في هذه الحياة ، بقيم فاسدة ، يسبب لنفسه التعاسة . ويرى إپيقور أن الآلهة لا تعبأ بأعمال الإنسان ، إذاً ليس ثمة من دينونة . وما يعتقده الرواقيون ، مثل سينيك ، أن وضع الأموات هو ذاته وضع الذين لم يولدوا ، أي العدم . وجهنم ، عند شيشرون ، تُرَّهات شعراء : والخيار الوحيد هو بين الأبدية السعيدة والعدم .

إن مفهوم جهنم يرفضه المفكرون اليونان والرومان بصورة إجمالية وهم يعتبرون أن فكرة الآلهة التي تحاكم الناس على أعمالها هي غير معقولة . وإن الآلهة ، بالنسبة إلى الكثيرين من بينهم ، إذا كانت موجودة ، لا تهتم بالناس . وإن عالم الآلهة غريب تماماً عن عالم البشر . وإذا كانت جهنم موجودة يكون الرجال هم الذين بنوها على الأرض وهم الذين يدينون أنفسهم بعماوة قلوبهم مستمرين ، بضراوة ، في ملاحقة

أوهامهم ذات القيم الفاسدة . ومنذ القرن الخامس قبل المسيح وجدت ثلاثة مفاهيم عن جهنم جنباً إلى جنب في العالم اليوناني ــ الروماني : جهنم الوجودية التي نراها على الأرض هي جهنم لوكريس ، وجهنم الفلاسفة وهي تصور منطقي ضروري لحسن سير العمل في المدينة ــ الدولة ، ونتيجة لوجود إله هو في الوقت نفسه خير مطلق : إنها جهنم أفلاطون ؛ جهنم الشعبية وهي صورة عن رغبة في العدالة والإنتقام حيث يكون الأشرار ضحايا لعذابات بارزة : إنها جهنم فرجيل .

II - جهنم لوكريس الوجودية

ولد لوكريس ، الشاعر والفيلسوف ، في حدود سنة 100 ومات سنة 55 ق .م . وقد ترك قصيدة تعليمية مشهورة في ستة أجزاء عنوانها «في الطبيعة» (De natura re-rum) هي شرح لأفكار إبيقور ، نجد فيها مفهوماً حديثاً جداً عن الجحيم ، مفهوماً خاصاً بنخبة فكرية لا نزال نجد ممثلين لها حتى في القرن العشرين .

إن خواطر لوكريس ذات عمق إنسانوي تشاؤمي تنم عن إنسان يعي الوحدة العظمى التي يعيشها الكائن المفكر وهي : لا تنتظرنّ شيئاً من العالم الثاني ، فهو ثمرة مخيلات الشعراء . الموت هو المخرج الوحيد من هذه الوحدة . وهو شامل وحاسم . فلا خوف من أية جهنم فائقة الطبيعة :

«يجب طرد ودحر الخوف من أكيرون الذي بدخوله إلى أعماق الإنسان يلقي اضطراماً في الحياة فيلوّنها بكاملها بسواد الموت» . إن الأساطير التي تتحدث عن جهنم هي من اختراع الأديان وغايتها تغذية الخوف ولكن بلا جدوى . ولكن هناك جهنم حقيقية ، واقعية جداً ، إنها القلق المقترن بالوجود ذاته . أن تحيا يعني أن تخاف : تخاف من الموت ، من الألم ، من المرض ، من العقاب ، من الآلهة ، من عذاب الضمير . هذا الخوف من الشرور الحقيقية أو الخيالية لا ينفصل عن الحياة . وهذا التوتر الدائم بين تأكيد الذات ومخاوفها ، هو القلق الوجودي ، هو الجحيم : «يحاول كل إنسان أن يهرب من ذاته ولكن دون أن يستطيع الإفلات فيظل مرتبطاً بنفسه بالرغم منه ناقماً على نفسه» . إن الحل هو الموت : لقد انتحر لوكريس في الخامسة والأربعين من عمره .

وفي صفحة مشرقة من كتاب «في الطبيعة» ينقل لوكريس أساطير جهنم إلى الحياة الأرضية ، فيعطيها قيمة رمزية مؤلمة : «وكذلك ،بكل تأكيد ، فجميع العذابات التي يضعها التقليد في الأكيرون ، جميعها ، مهما كان نوعها ، إنما نجدها في حياتنا . فليس ثمة ، كما تقول الخرافة ، من تانتال تعيس يخاف دوماً الحجر الضخم المعلق فوق رأسه ويشل قواه خوف لا أساس له : ولكن بالأحرى هو الخوف العبثي من الآلهة الذي يقلق حياة الفانين والخوف من المصائب التي يهدد القدر كل واحد بها . ولا وجود كذلك لتيتيوس ممدَّداً في الآكيرون تمزقه العصافير ، تلك التي لا تعثر في صدره الرحب على ما تبحث عنه مهما طال الزمن . ومهما كانت ضخامة جسمه الممدد تثير الرعب ، فهو ، مع ذلك ، بدلاً من أن يغطي تسعة فدادين بأعضائه المقطعة ، فهو يغطّي الأرض بكاملها . وهو لا يستطيع أن يتحمل حتى النهاية ، عذاباً أبدياً ولا أن يقدِّم من جسده مرعىً لا يعرف الجفاف .

«لكن تيتيوس هو بالنسبة إلينا يعيش على الأرض : إنه الرجل المتمرغ في الحب ، الذي تمزقه نسور الحسد ويفترسه القلق المحض . والذي ينفطر قلبه بسبب الآلام المبرحة لهوىً من الأهواء . وسيزيف نفسه موجود أيضاً في هذه الحياة ، لقد رأيناه بأم عيوننا يلتمس من الشعب المغازل والفؤوس المرعبة ، ويعود فينسحب دائماً مدحوراً مشحوناً صدره حزناً وأسىً . لأن السعي إلى السلطة التي ليست إلاّ وهماً ومستحيلة المنال وتحمّل المشقات المضنية إلى ما لا نهاية في هذا السعي ، هو بالفعل دفع دؤوب للحجر على منحدر الجبل ، الحجر الذي لا يكاد يصل إلى القمة حتى يسقط من جديد ويتدحرج إلى الأسفل ، إلى السهل . وعلى مثل ذلك ، تغذية رغبات نفسنا العقوق دون هوادة وإثقالها بالخيرات دون التوصل أبداً إلى إشباعها ، وذلك على طريقة الفصول عندما تحمل لنا في عودتها السنوية نتاجها وخيراتها المختلفة دون أن تشبع نهمنا إلى الملذات ، وهذا ، كما اعتقد ، ما ترمز إليه هذه الفتيات في عمر الزهور المشغولات في صب المياه في إناء لا قعر له ومهما بذلن من الجهود فلا يستطعن ملأه . وأيضاً وأيضاً سيربير والإلهات الساخطات (Les Furies) وانعدام النور في الترتار الذي ينفث فمه اللهب لا توجد في أي مكان ولا يمكن أن توجد .

ولكن بمقابل المساوىء الكثيرة في الحياة خوف جسيم من العقاب ؛ وبمقابل الإثم

تكفير : سجن ، سقوط مخيف من أعلى الصخرة ، مقارع ، جلادون ، أصفاد ، قار ، نصال حمر ، مشاعل ، وحتى في غياب هذه العقوبات ، تجهد النفس الملحة بجرائمها والخائفة من التفكير بها ، بوخز نفسها بالإبَر وجلد نفسها دون أن تعرف ماذا يمكن أن تكون عليه نهاية الآلام وكيف ستكون نهاية شقائها وهي تخالف ، عكس ذلك ، أن تزداد الآلام والشقاء خطورة بعد الموت .

وهنا ، أخيراً ، في هذا العالم ، تصبح حياة الحمقى جهنماً حقيقيةً (في الطبيعة ــ الجزء الثالث ص (978) - 1024 .

III ـ جهنم الفلسفية الأفلاطونية

يواجه أفلاطون هذا المفهوم النفسي البحت كجهنم بمعنى سياسي واجتماعي . ويبدو اهتمامه ، في النتيجة ، اهتمام مشترع أكثر مما هو اهتمام عالم في الأخلاق أو في اللاهوت . ورؤياه هي قضائية وشرعوية . وعلاوة على ذلك فهي ليست متماسكة ، فثمة اختلافات جوهرية بين عرض فيدون وعرض الجمهورية وعرض غورجياس التي هي حوارات ثلاثة تأتي على ذكر جهنم بوضوح .

وثمة شيء واحد أكيد هو أنه بعد الموت دينونة يُفْصَل على أثرها بين الأخيار والأشرار . وإنطلاقاً من هنا يختلف مصير الأشرار . ففي حوار فيدون يَرِد ذكر صنفين هما : من أدينوا بالهلاك الأبدي والآخرون .

«أولئك الذين اعتبرت حالتهم ميؤوساً منها ، نظراً إلى جسامة خطاياهم ؛ المسؤولون عن حوادث سلب كثيرة وخطيرة اقترفوها في الهياكل ، المرتكبو جرائم قتل بشرية ، اقترفوها ظلماً وبطريقة محرَّمة ، وفاعلو جميع الآثام الأخرى من هذا النوع ، إن المصير الذي يستحقونه يقذف بهم إلى الترتار حيث لا يخرجون منه أبداً . أما بخصوص الذين لا تعتبر الآثام التي اقترفوها بلا علاج ، هؤلاء يحشرون في الترتار عنوة» . ثم وبعد أن يقضوا هناك ردحاً عظيماً من الوقت يقذفهم الموج [. . .] وبعد أن يعادوا إلى هناك ، ينادون بصراخ عظيم ، البعض ينادي من كان سبب هلاكه وآخرون ينادون من أساؤوا معاملتهم . وبعد أن ينادوا يتوسلون إليهم ، يضرعون إليهم أن يدعوهم يخرجون من النهر ليعبروا إلى البحيرة وليستقبلوهم

فيها . فإذا استطاعوا إقناعهم يعبرون واضعين هكذا حداً لآلامهم ، وإذا لم يستطيعوا يقادون إلى الترتار من جديد ومن هناك إلى النهر : إنها معاملة لا تنتهي بالنسبة إليهم قبل أن يقنعوا الضحايا بظلمهم ؛ لأن هذا هو العقاب الذي فرضه عليهم القضاة (113 - 114) .

ويواجه هذا الحوار احتمالاً ثالثاً يحكم على نفوس الذين كانوا طوال حياتهم عبيداً لرغبات الجسد ، وبالتشرد في الأرض فيجذبها العنصر المادي نحو الأسفل : وينتهي أمرها بأن تتقمص حيواناً يمثل نزعة الشر الطاغية عليها .

ويلاحظ في حوار غورجياس التمييز بين الذين لا يغفر لهم والآخرين . يخضع الجميع لعذابات ليس هدفها واحداً ! إنها بالنسبة إلى البعض خلاصة افتدائية تطهيرية وبالتالي وقتية وبالنسبة إلى الآخرين ، إلى الذين لا يغفر لهم قيمة المثل والعبرة : إنها لا تستطيع أن تنجيهم لأنهم ارتكبوا خطايا جسيمة ولكن يعتبر تعذيبهم تحذيراً للناس مما سينتظرهم إذا عملوا الشر وهم :

«أولئك الذين من مصلحتهم أن يؤدُّوا القصاص الذي فرضه عليهم الآلهة أو البشر وأولئك الذين كانت خطاياهم لا تغتفر . ولا يأتيهم النفع بوسيلة أقل من وسيلة العذابات والآلام في هذه الدنيا وفي هاديس . لأنه ليس من الممكن أن يتخلصوا مما لحقهم من الحيف إلاّ بهذه الطريقة .

«أما الذين دفعوا بظلمهم إلى الدرجة القصوى والذين ، بأعمال ظالمة مماثلة ، سيصبحون هالكين ، هؤلاء سيكونون مضرباً للمثل ومنهم ستتخذ العبرة ؛ وفيما هؤلاء الناس ، ولأنهم هالكون ، لا يجنون شيئاً من عقابهم ، فالفائدة ستكون لمن رأوهم يلقون بسبب أخطائهم ، من التجارب الأبدية ، أعظمها وأشدها ألماً ورعباً : معلقون فعلاً هناك عند هاديس ، في السجن مثار تأمل واعتباراً للظالمين الذين ما زالوا يتوافدون (غورجياس 486) .

الغاية السياسية واضحة هنا . هؤلاء الهالكون ، في الواقع ، هؤلاء الممعنون في الشر والأذى ، هم رجال سياسة وملوك ومغتصبو السلطة ، وفي حوار فيدون ، هم المسؤولون عن الخلل الاجتماعي . وإن أعظم الخطايا ، استناداً إلى جمهورية

أفلاطون ، هي خطايا «أولئك الذين سببوا موت أكبر عدد من الناس أو الذين خانوا وطنهم وجيشهم واستعبدوا مواطنيهم . . .» . وقصاص كل عمل ظالم ، بالنسبة إلى هؤلاء ، مئة سنة من العذاب . وفي هذا الحوار يلجأ أفلاطون إلى أسطورة إرّ (Er) الذي نزل إلى الجحيم ، منبعثاً من الموت ، وروى ما رآه غير محجم عن الاقتباس من الأساطير الشعبية ليصف طريقة الشياطين في تعذيب الهالكين .

«كانو يكبلون منهم اليدين والرجلين والرؤوس ويمددونهم على الأرض ويجردونهم من الثياب ، ويسحلونهم على امتداد الطريق وعلى حافتيها يجرجرونهم على أشواك السياج . وكانوا يخبرون الذين يمرون من هناك دون انقطاع عن أسباب هذه المعاملة ، يضيفون إلى ذلك أنهم سيُقتادون إلى الترتار ليغرقوهم فيه» (الجمهورية X ، 616) .

ليس ، في الجمهورية ، عذابات أبدية . ففي نهاية ألف سنة تعود النفوس فتتقمص .

من الصعب أن نقرر إلى أي حد آمن أفلاطون بجهنم ، وإلى أي حد كان خلقه لها واعياً لكي يدعم بقوانين فائقة الطبيعة أوهامه التشريعية . وفي حوار غورجياس يميز بطريقة غير واضحة تماماً بين الأسطورة والتاريخ ، فيتوجه سقراط إلى كَلّيكْليس قائلاً : «إذاً ، أصغ ، كما يقال ، إلى تاريخ مشوق . أنا مقتنع بأنك تعتبر هذه خرافة . ولكن بحسب رأيي إنه تاريخ . ويخطر في بالي أن ما أقوله لك هو حقائق» . وبعد قليل يشعر سقراط من جديد أن الشك تسرب إلى محدثه فيقول له : «ربما تأخذ كل ما أقوله هنا على سبيل الخرافة ، كالذي ترويه العجائز ، فلا تقيم له وزناً» . ويتابع : «اقتنع إذاً [. . .] بما يرويه التاريخ الذي سردته على مسامعك» .

من المعقول جداً أن تكون هذه الشكوك هي شكوك أفلاطون ذاته . وفي هذه الحال ، تسجل جهنمه في تحضيرات واعية لأساطير معدة لدعم مخطط اجتماعي — سياسي .

وعندما ينطلق في حوار فيدون ، في وصف لا ينتهي لشبكات المياه الجهنمية ، ويتوقف عند مسح دقيق لهذه الأمكنة التحتأرضية يصعب علينا الإيمان بإخلاصه ، في عصر تبرهن فيه أكثر التيارات الفلسفية على أعظم تحفظات حول هذا الموضوع .

ومع ذلك فإن أتباعه الأفلاطونيين الجدد يعودون إلى الاستشهاد بتأكيداته . وفي القرن الثالث يُعدّ أفلوطين مفهوماً أكثر روحانية يذكّر بمفاهيم جهنم الهندوسية . إن جهنم ، بالنسبة إليه ، تتفق مع وضع النفس المقيدة بالمادة .

جهنم : «عندما تكون النفس غاطسة في الجسد ، غارقة في المادة وممتلئة بها ، ثم عندما تفارق الجسد تسقط من جديد في الوحول ذاتها حتى تعود نحو العالم المفهوم الواضح ، وتحول ناظريها عن هذا المكان الموحل ؛ هذا هو الموت الحقيقي . وطالما هي هناك يقال إنها انحدرت إلى الجحيم وإنها تغط هناك في نومها (Ennéades, IV, 1, 8) .

وبالنسبة إلى أفلوطين هناك في الحقيقة ثلاثة نماذج متكاملة لجهنم : ذاك الذي أوجده الاقتصاص المستمر من الخطايا ، التي تسبب لنا مشاكل على هذه الأرض وذاك الذي ينتج عن تقمصنا في كائنات دنيا ، والذي يفرضه علينا الشياطين نتيجة لأفدح الأخطاء .

IV ـ جهنم فرجيل الشعبية والشعرية

الإنياذة (L'Eneide) هي أول مؤلف سياحي ضخم عن الجحيم وستبقى مرجعاً لعدة قرون أخرى ، إلى حد أن دانتي اتخذ فرجيل دليلاً له في سَفَره الطويل .

لنذكّر بإطار القصة : لقد طلب إينيه الأذن من سيبيل (Sybille) بالسماح له بالنزول إلى جهنم ليزور أباه أنكيز (Anckise) فمنح هذا الإذن على شرط أن يقوم ببعض الطقوس الإسترضائية . السفر محفوف بالمخاطر وهو رمزي ومليء بالصور الحسية الأمر الذي أسهم ، بالإضافة إلى الميزة الأدبية ، بجعل الكتاب نموذجاً من نوعه كثيراً ما نُسِج على منواله .

لقد حُدد مدخل الجحيم جغرافياً : إنه في مستنقعات الأكيرون بالقرب من كانْ في مقاطعة كامپانيي (Campanie) ويزكي النشاط البركاني في هذه المنطقة والمناظر الكئيبة التي كونتها ، شهرته بشكل قوي : وظلت فوهات الجحيم تُحدَّد لمدى طويل بين الفيزوف والإتنا في كامپانيي أو في صقلية ، ويتم الدخول إليه عبر كهف تخرج منه روائح تثير الغثيان . ويعد انحدار سحيق يدخل القادم في دهليز حيث تمكث

البلايا المشؤومة المنذرة بجهنم وهي : المرض والجوع والفقر والحرب والألم ووخز الضمير والخوف والسجن والحداد والشقاق والموت . ثم تهجم الظلال الوحشية والمجنحة للنساء الطائرات والمسوخ والأفاعي والقنطورس ، من حراس المكان ، ويجعل منها التصور المسيحي شياطين .

ولدى وصول القادم إلى ضفاف أكيرون ، عليه أن يوجه كلامه إلى المُعَدِّي (من يساعد الأموات على عبور أكيرون في قاربه) وهو عجوز في أسمال يدعى كارون (Charon) والنفوس التي ترغب في العبور كثيرة ولكن نفوس الأجسام التي لم تُلْحَد في قبر تتيه مئة سنة قبل أن تستطيع الصعود إلى المركب . وعلى الضفة الأخرى من النهر يجب تدجين سِربيرْ وهو كلب مسخ ذو رؤوس ثلاثة .

تعيّن محكمة رادامانت ومينوس ، بمساعدة قضاة يعينون بالقرعة تبعاً للعرف الروماني ، للنفوس المقصورة التي تناسبها . وثمة صنف من الموتى يحيِّر كل من يخلق جهنماً : ألا وهو صنف الأولاد الذين يموتون في سن الطفولة . إنهم هناك ينتحبون بصحبة المنتحرين الذين عاشوا حياة صالحة والمحكوم عليهم بالموت خطأ . فلا تفرض عليهم العذابات ولكنهم ليسوا سعداء ، وليس أسعد منهم سكان حقل الدموع وهم : العشاق التعساء ، المحاربون الذين قتلوا في المعركة ، وذوو الحظ التاعس من كل نوع ، الذين يجترون أحزانهم ساخطين حاسدين كما في جهنم السومرية . وبطريقة مستهجنة تظل ضحايا الحياة مبعدة معزولة : لا تفتح لها أبواب الجنة مع السعداء ولا تحشر في الترتار مع الهالكين .

ولأن جهنم ، بالمعنى الحقيقي ، توجد هنا في قلعة ضخمة من حديد مثلثة الأسوار يحيط بها پيريفليجيتون (Pyriphlégithon) نهر اللهيب . وتحرس المدخل الجنية تيسيفون ، ومن هذا الغار يتصاعد صراخ ونحيب وقعقعة سلاسل ووقع ضربات . هنا ، لا يستطيع الدخول أي إنسان طاهر ، وتشرح العرافة التنكيل الذي يخضع له التعساء الذين يشكل تيتيوس وتيزيه وإكسيون وپيريتوس بعض حالاتهم المشهورة . ما هي الأعمال التي يستحق فاعلوها هذا المصير؟

«إنهم أولئك الذين ، طيلة حياتهم ، بغضوا إخوتهم ونكّلوا بآبائهم وأفسدوا إيمان

مولاهم : الذين (وعددهم ليس بالقليل) جمعوا الثروات واختزنوها لأنفسهم ولم يشركوا فيها ذوي قرباهم ، الذين قُتلوا على يد زانٍ، والذين لم يرهبوا خيانة القسم الذي أدَّوه أمام أسيادهم . جميعهم أسرى هنا ، ينتظِرون العقاب . لا تحاول أن تعرف ما هو هذا العقاب .

العقاب ما هو إلاَّ شكل المصيبة أو الحظ الذي ألقى هنا بهؤلاء الناس . فهذا باع وطنه بالذهب وفرض عليه سيداً قوياً . وذاك ، بمبلغ من المال حفر شرائع وألغاها . وآخر دخل في مخدع إبنته وافتض بكارتها المحرمة عليه . جميعهم تجرأوا على اقتراف إثم فظيع ، وحققوا ما يتجرأون عليه . لا ، لن أستطيع ، حتى ولو كان لي مئة لسان ومئة فم وصوت من حديد ، لن أستطيع تعداد كل أشكال الجرائم ولا استعراض كل أنواع العذاب» (Enéide, 560 - 630) .

إن الشبه بين الآثام والمعاقبة عليها في جهنم والتي يعاقب عليها القانون الروماني شبه مذهل . وهكذا ، فقانون الألواح الإثني عشر يمنع بشكل واضح أن يُفسَد على المولى إيمانُهُ الصحيح . إن قانون معاقبة الزنا الذي يعود إلى العام 17 ق .م . يخوّل الزوج قتل زوجته وعشيقها إذا ضبطهما في جرم الزنا المشهود : نجد في الجحيم زناة مقتولين ولا نجد زوجاً قاتلاً . حالة العبيد المتمردين والمشترعين الذين كانوا يسنّون الشرائع ويلغونها كانت رائجة بشكل خاص خلال عصر الإضطرابات في نهاية الحرب الأهلية . وليس من المستغرب أن نجد كل هؤلاء الناس في جهنم . وثمة جهنم مؤقتة : فالنفوس المطهَّرة تقيم زمناً في الجنة ، وبعد ألف سنة ، بعد أن تكون قد شربت النسيان في نهر ليتيه (Léthé) تعود فتتقمص .

إن التصور الفرجيلي لجهنم كثيرة المراعاة للشرائع مفعمة بالشاعرية معاً ، هو أحد المصادر لجهنم المسيحية الكلاسيكية التي ترث أيضاً تقليداً آخر هو تقليد العالم التوراتي .

الفصل الرابع

جهنم التوراتية وجهنم العبرانية

إن الأهمية التي اتخذتها جهنم في الديانة المسيحية التقليدية كثيراً ما حملت على التفكير بأنه يجب أن تكون قد شغلت مكاناً مهمّاً في العالم التوراتي وفي الكتاب المقدس منبع الوحي واللاهوت والعقيدة ؛ فليس شيء من ذلك . فالجحيم كمكان للعقاب في العالم الآخر ، ويا للغرابة ، غائب تماماً عن العهد القديم أقلُّه حتى القرن الثالث ق .م . أي حتى عصر متأخر حين كانت لكل الديانات الأخرى مفاهيم راسخة عن جهنم .

وإذ التفكير باحتمال وجود عقوبات يفرضها الله على الأشرار بعد الموت قد بدأ يظهر انطلاقاً من القرن الثالث قبل المسيحـ لقد كان ذلك بتأثير من الحضارات الأخرى أكثر مما هو تطور داخلي للفكر اليهودي . وفي الوقت الذي ظهرت فيه المسيحية كانت الأوساط العبرانية كثيرة الإنقسام حول هذا الموضوع الذي يتكتَّم حوله العهد الجديد أقصى التكتم . وإنه في سياق نص خاص جداً هو الأدب الرؤيوي تكونت الصور الأولى عن مكان العذاب في النار والدود ، تلك الصور التي فقدت بسرعة ، في الأوساط الشعبية ، معناها الرمزي واعتبرت من صميم الواقع .

I ـ المفاهيم التوراتية القديمة

ربما كانت ديانة العبرانيين ، من بين جميع ديانات الشرق الأدنى ، ولفترة زمنية

طويلة ، الأكثر ماديَّة . واستناداً إلى أقدم أسفار التوراة يبدو كل شيء وكأنه ينتهي عند الموت ، لأنه إذا كانت النفوس المفترض أن تذهب إلى الشيول[1] وهو ، كما جاء في المزمور 63 ، مكان موجود (في أسافل الأرض) والفرق بينه وبين العدم زهيد جداً .

وفي هذا المكان المقفل بباب متين ترقد النفوس في الغبار ، فاقدة الحركة والإحساس والوعي ، ولا أمل لها بالقيامة . وهكذا فليس المرتجى ساراً بالنسبة إلى الأحياء : أخياراً وأشراراً لأنهم يلاقون مصيراً واحداً . وهذا ما يستنتجه سفر الجامعة[2] محرراً من الوهم .

«وبعد [. . .] يلاقون مصير الموتى .
في الواقع ، من يكون له الأفضلية؟
شيء واحد أكيد بالنسبة إلى جميع الناس :
وهو أن كلباً حياً أفضل من أسد ميت .
لأن الأحياء يعرفون أنهم سيموتون .
ولكن الأموات لا يعرفون شيئاً على الإطلاق .
فلا أمل لهم بالثواب .
لأن ذكراهم قد باتت في طي النسيان .
وحبهم وبغضهم وحسدهم قد تلاشت جميعاً .
ولن يكون لهم نصيب في كل ما يجري تحت الشمس» (9 ، 3 ـ 6) فعلى الأرض يعاقب الله الأشرار ، أولاً بطريقة جماعية سامحاً بالاحتلال الأجنبي والسبي والطاعون والمجاعة ومهاجمة الحيوانات المفترسة ، وتحول العقاب ، انطلاقاً من عصر الأنبياء ، في القرن الثامن ق .م ، فردياً وظل أرضياً بحتاً . لكن العدالة ظلت ، في الواقع متأصلة ، وأصيب الأشرار بمصائب مختلفة ، عملاً بشريعة «العين بالعين

(1) شيُول : كلمة عبرانية وموجودة أيضاً بالمعنى نفسه في السريانية تعني مقر النفوس بعد الموت ـــ م ـــ .
(2) بالعبرانية «كوحِلتْ = Qohélet .

والسن بالسن» . والخطايا المعاقب عليهما هي دينية طقسية واجتماعية ، مثل : عبادة الأصنام ، انتهاك المقدسات أو نصوص الشريعة الموسوية . .

إن الخطوط الأولى لفكرة الجحيم بعد الموت متأخرة جداً ، وفي سفر إشعيا فقرتان طالما اعتبرتا هكذا :

لأنه هوذا يهوى يأتي ومعه النار ، وعجلاته كالزوبعة ، ليصب غضباً متأججاً ووعيده لهيب النار ، لأن يهوى يدين الناس جميعاً بالنار (66 ,15 - 16) «وبخروجهم يرون جثث الناس الذين تمرّدوا عليّ لأن دودهم لا يموت ونارهم لا تطفأ ، ويكونون حثالة لكل بشري (66 ، 24) .

ويعتبر التفسير المعاصر أن لهذه العبارات معنى مادياً بحتاً ودنيوياً : إن جثث أعداء إسرائيل ستتهرأ ، وتأكلها الديدان ، وهذه استعارة تعني الفساد ، أو ستلتهمها النيران في وادي هِنُّوم ، خارج أورشليم . والنار هي مادية رمزية معاً تعني الغضب الإلهي الذي يهلك الكافرين : ويسأل المزمور 89 قائلاً : «إلى متى يا يهوى سيتقد غضبك كالنار؟» . والنار كأداة تطهير ذكرت في الكتاب المقدس 271 مرة .

والفكرة التي تطورت في عصر الأنبياء ، بكل وضوح ، هي فكرة المسؤولية الشخصية . ويقول حزقيال في الفصل الثامن عشر : «إن الذي يخطىء هو الذي يموت . لا يتحمل الابن خطأ الأب ولا الأب خطأ الابن» . ومع ذلك يجب انتظار القرن الخامس لنرى إثارة مبدأ العدالة الثابتة بشيء من الخجل . هل كان ذلك نتيجة للإحتلال الفارسي والإحتكاك بالزرادشتية وعقيدتها الأخروية؟ لا نعرف : ويطرح سفر أيوب (نهاية القرن الخامس) قضية البار الذي تصيبه البلايا والشرير الذي ينعم بالنجاح وعند الموت يكون مصيرهما واحداً «يتمدَّدان معاً على الغبار وتغطيهما الديدان» . وفي القرن التالي يتحدث النبي يوئيل عن إمكانية دينونة في نهاية العالم ، تسبق فصل الأخيار عن الأشرار في سياق انقلابات كونية تستبق طريقة أسفار الرؤيا . ولكنها ليست سوى رؤيا غامضة .

إن الإحتكاك بالعالم الهلينستي إبتداءً من الفتح الإسكندري سنة 331 ق .م . والإندماج في عالم البطالسة والسلوقيين يحركان هذا التفكير . ويلاحظ تكاثر

الإفتراضات في جو من الرهبة الدينية والبحث عن الخلاص الذي يميز الشرق في ذاك العصر : وكانت الديانات ذات الأسرار مثل عبادة سيبيل[1] أو الأورفية[2] تنافس العبادات الكبرى واعدة بالسعادة الأبدية لاتباعها ومنذرة بالخوف من دينونة محتملة للآخرين . وقد شارك العالم اليهودي ، الأكثر حساسية تجاه التأثيرات الخارجية التي لم يؤمنوا بها لمدى طويل ، شارك في هذه التصوُّرات وخاصة في أوساط الشتات ، ومنها الإسكندرية ، حيث تعيش الديانات المختلفة جنباً إلى جنب مع المواقف الأكثر مادية ، مثل موقف تيودور الملحد ؛ وثمة تيار أبيقوري قوي يعبر عن نفسه بهذه الجملة : «لم أكن موجوداً ، ثم ولدت ، ثم عشت ، ثم لم أعد موجوداً : هذا كل شيء . وإذا ادَّعى أحد عكس ذلك ، فهو كذَّاب»[3] .

II ـ تردد العبرانيين أمام فكرة جهنم (القرن الثالث ـــ القرن الأول ق.م.)

كان العالم العبراني بطيئاً في قبول فكرة جهنم . . . ففي القرن الثالث ق .م . وكان سفر الجامعة المتأثر شديد التأثر بالفلسفة اليونانية قد عبَّر عن تشاؤمه بقوله : «كلٌّ يصاب بكلٍّ . وحادث واحد للصديق والمنافق ، للصالح والطاهر وللنجس ، للذابح ولغير الذابح ، للصالح مثل الخاطىء ، والذي يحلف كالذي يتقي الحلف» . (2,9) . ويؤكد سفر ابن سيراخ في القرن الثاني أن العقاب الوحيد للشرير يكون في هذه الحياة بتطبيق العدالة الثابتة . فليس من شيء نخافه بعد الموت : «سواء أعشت عشر سنوات أو مئة سنة أو ألف سنة في الجحيم فليس في الجحيم حساب على العمر» (41 ,3 - 4) .

---

(1) Cybèle : إلهة الخصب : انتشرت عبادتها في القرن الثامن ق .م . في العالم اليوناني الروماني . ـــ م ـــ .

(2) نسبة إلى Orphée أمير تراقيا في الميتولوجيا اليونانية وهو شاعر وموسيقي ومغنٍّ . كان يسحر بفنه حتى الحيوانات المفترسة . نزل إلى الجحيم ليستعيد أوريديس التي ماتت بلدغة أفعى . استطاع أن يسحر حراس الجحيم ويصطحب أوريديس إلى عالم الأحياء شرط أن تسير وراءه ولا ينظر إليها حتى يجتاز عتبة الجحيم . . . ولكنه نسي ما تعهد به ففقد أوريديس إلى الأبد ـ م ـ .

(3) وقد قال أحد الشعراء العرب :

حياة ثم موت ثم بعث حديث خرافة يا أم عمرو ـ م ـ

غير أن الأحداث السياسية تأتي لتحرك الفكرة وتثير الشكوك حول المفهوم التقليدي ، مع اضطهاد الملك السلوقي أنطيوخوس الرابع (164 - 175) الذي يحظر العبادة اليهودية ويحاول هلّنة (جعلها هلينية) فلسطين بالقوة . وتشتعل ثورة بقيادة عائلة المكابيين تخوض معارك بطولية ولكنها لا تحقق نجاحاً في إنقاذ الشعب العبراني . أوليست هذه المحن الأرضية التي تميزت بانتصار أعداء الشعب الإسرائيلي دليلاً على أن الله يؤجل زمن الثواب إلى نهاية العالم؟ إنها الفكرة التي نشأت في الأدب المسمّى أدب الرؤيا من لفظة تعني «الوحي» . توضع هذه الإيحاءات ، شكلياً ، على لسان شخص من الماضي يعلن أحداثاً تاريخية ، سبق أن حدثت وتستخدم شهادة لحقيقة أقواله . ورسالة سرية ، بلغة رمزية ، حول عواقب الإنسان الأخيرة ، معتمدة على التقلبات الكونية التي هي صور ذات معنى خفي . فهذا النوع من الأدب ، الذي ينطبق على زمن الكوارث والإضطهادات ، سيستمر حتى القرن الثاني . ب .م ، وتحتاج قراءته رموزاً ومصطلحات تفوتنا في حالات عديدة ، وأن المعنى الغامض لبعض الإستعارات الذي يضيع منا بسرعة متناهية ، يجعلنا نفسر تفسيراً حرفياً ما لم يكن سوى صورٍ ورموز . تلك هي حالة جميع الصور التي تعني النار مثلاً .

فضمن هذا السياق يقع سِفر دانيال الذي حرر سنة 160 ق .م . والذي يتحدث للمرة الأولى ، وبوضوح عن جهنم أبدية : «ويكون وقت ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك الزمان . وفي ذلك الزمان ينجو شعبك ، وكل من يوجد مدوناً في الكتاب . وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون بعضهم للحياة الأبدية وبعضهم للعار والرعب الأبدي» (12 ,1 - 2) .

غير أن الفكرة هي أبعد من أن تلقى الإجماع : إذ نجد في سفر المكابيين الثاني ، مثلاً ، أن العقاب الوحيد الذي أعلن لأنطيوخوس الرابع هو أرضي . حادثة ، موت مرير ، انحطاط تعيس . ونجد في السفر الأخير من العهد القديم أي سفر الحكمة المدوَّن في حدود السنة 50 ق .م . أنه لا يزال للقائمة الطويلة من العذابات التي تصيب الأشرار معنى أرضي ، ونميِّز في عصر المسيح استناداً إلى ما يقول المؤرخ فلافيوس ثلاثة آراء مختلفة عند اليهود : فالصدُّوقيون الذين ينتمون إلى الأوساط

الأرستقراطية والكهنوتية يرون أن الموت الفردي شامل ولا وجود لجهنم . ويعتقد الفرِّيسيون الذين يشكلون وسطاً تقياً متعبداً متفرعاً من الطبقات الوسطى أن هناك بكل تأكيد ، دينونة وعقاباً في العالم الآخر ، وذلك في شكل عذابات . ولكن هذا المعتقد غير دقيق ، ويختلط أحياناً بفكرة التقمص . أما الأسينيُّون الذين ظهروا في القرن الثاني ق .م . وكانوا يشكلون جماعة متفرقة وخاصة في الصحراء بالقرب من البحر الميت ، فهم أكثرهم منهجية . وقد كتب المؤرخ يوسيفوس : «يؤمن هؤلاء الأسينيون أنفسهم أن الأنفس خلقت خالدة لكي تسعى إلى الفضيلة وتبتعد عن الرذيلة ، وأن الصالحين حسنت حالهم في هذه الحياة ، لأملهم في أن يكونوا سعداء ، بعد الموت وأن الأشرار الذين يتصوَّرون أن باستطاعتهم إخفاء سيئاتهم في هذا العالم سيكون عقابهم عليها في العالم الآخر عذاباً أبدياً . «فهل نشأ يوحنا المعمدان ويسوع المسيح في هذه الجماعات؟ إن النقاش لا يزال يدور حول هذه المسألة ؛ ولكن بعض الدلائل المحيِّرة كما أن بعض المقاطع من مخطوطات البحر الميت التي كُشف محتواها شيئاً فشيئاً ، تحمل على التفكير بهذا الأمر . أمّا العالِم اليهودي الأرثوذكَسي فيكوّن تصوّره ببطء حول موضوع الجحيم .

III ـ جهنم الربّانية وجهنم التلمودية

إن أدب اليهودية المنحول هو الذي روّج أولاً موضوع الجحيم ، في سفر أخنوخ الذي يعود تاريخه إلى القرن الأوّل ق .م . حيث نرى البطريرك أخنوخ يحمله الملائكة إلى العالم الآخر مجتازاً نهر النار وجبل الظلمات ، فيصل إلى مدخل الجحيم الذي هو هاوية قائمة إلى الغرب بالقرب من أعمدة نيران السماء . في الداخل وفي وادٍ ضيق صنفان من الموتى ينتظرون العذاب : الخطأة الذين عاشوا تعساء يلاقون عذاباتٍ مخففة والخطأة الذين عاشوا سعداء تكون عذاباتهم أبدية .

وثمة سفْران آخران يعود تاريخهما إلى منتصف وإلى نهاية القرن الأول ق .م . يركّزان علىَ الفكرة ذاتها وهما : مزامير سليمان وخاصة رؤيا باروخ ، النص الربّاني الذي ينذر بنهاية العالم ، الذي سيعاين دينونة الأشرار في النار : «كل هذا الجمع سيبوء بالهلاك ، والذين ستفترسهم النار لا عد لهم» . ويحاول هذا الكتاب عملاً صعباً وهو التوفيق بين المسؤولية الجماعية الناشئة عن الخطيئة الأصلية والمسؤولية

الفردية : «لأنه إذا كان صحيحاً أن آدم الأول أخطأ وجلب الموت إلى كل الذين لم يكونوا قد وُلدوا في أيامه ، غير أنه من الصحيح أيضاً أن كل واحد من الذين وُلدوا منه أعد لنفسه عذاباً آتياً أو أنه اختار الأمجاد الآتية . . لأن آدم لم يكن مسؤولاً إلاّ عن نفسه ، وكل منا آدم نفسه» (LIV ,15 - 19) .

وفي السبعينات بعد المسيح ينذر السِّفْر الرابع لحسدراس (Esdras) بأن الذين يعصون الشريعة سيلقون سبعة أنواع مختلفة من العذابات والكوارث التي نزلت باليهود ما بين سنة 70 وسنة 135والتي قضت على كل أمل بالتحرر الأرضي ، أسهمت في الترويج للإيمان في عدالة آتية . وكان الشعور السائد انطلاقاً من القرن الثاني أنه عند الموت تذهب النفس لتستقر في الجحيم (شْيولْ) في منازل منفصلة للصالحين وللأشرار بانتظار الدينونة الأخيرة . عندئذٍ يذهب الأوَّلون إلى جنة عَدْن والآخرون إلى جهنم ، وهي مكان قائم في الغرب وقد جاء في التلمود أنه مؤلف من سبعة منازل بعضها فوق بعض ، تسيطر في جميعها نار قوتها في كل منزلة تزداد ستة أضعاف عن المنزلة التي فوقها : وعلاوة على النار هناك أهوال مختلفة : قاعات مظلمة تعج فيها العقارب وأخرى يضطر فيها المعذب إلى التهام أعضائه .

وهذه العذابات هي ، بشكل عام ، وقتية وغايتها التطهير من الآثام : إذ تستطيع النفس ، بعد انقضاء فترة العذاب أن تنتقل إلى جنة عدن ، باستثناء الخطأة الغلاظ الأكباد ومن بينهم المسيحيون ، الذين تتباين بشأنهم آراء المدارس الربانية : فمدرسة شاماي[1] هي كثيرة التشدد وتؤمن «بالرعب الأبدي» ، بالعذابات التي لا تنتهي ، في حين أن مدرسة هلّيل (Hillel) تعتقد أن الصَّفح العام يُمنَح بعد العذابات التي تدوم حتى الدينونة الأخيرة . ويعتقد البعض أن المسيحيين هم هالكون .

ويستمر هذا التردد طويلاً في الفكر اليهودي الذي يعطي الحياة الأخرى من الأهمية دون ما يعطيها الفكر المسيحي . ويكتفي فلاسفة القرون الوسطى ، مثل ابن ميمون ، بالتأكيد على فناء الأشرار .

---

(1) Shammay عالم يهودي فرِّيسي عاش في أورشليم (– 50 ق .م ، –30 ب .م .) أسس مدرسة (بيت شمَّاي) عرفت بالتشدد في تفسير الشريعة عكس مدرسة هلّيل وهو (عالم يهودي فرّيسي ولد في بابل) ــ م ــ .

IV ـ جهنم في العهد الجديد

تأتي المفاجأة الأولى ، لدى قراءة العهد الجديد ، من الندرة النادرة لذكر موضوع الجحيم ، الذي لا يشغل ظاهرياً سوى مكان ثانوي في تعاليمه الأساسية .

وإذا أخذنا النصوص تبعاً لزمن تأليفها ، علينا أن نبدأ برسائل بولس ، لأنها حررت بين سنتي 50 و 63 ، في حين أن الأناجيل الأولى لم تدوَّن إلاّ ابتداء من سنة 70 . وأن كلمة جحيم لم تظهر في كتابات بولس إلاّ مرة واحدة وبمعنى «العالم السفلي» : «لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة مما في السماء وعلى الأرض وتحت الأرض» (رسالة إلى أهل فيليبي 2 ، 10) . ولمّح بولس بعض التلميحات إلى الدينونة الأخيرة ليقول إن كل إنسان سينال ثوابه ، ولكنه دون أن يأتي على ذكر مصير الأشرار . وهذا بالضبط ما يفهم من كلامه في رسالته إلى الرومانيين (2 ,5 - 12) المحكوم عليهم بالهلاك . إن هذا التكتم المطبق لدى من يعتبر أول لاهوتي في الكنيسة وتعتبر تعاليمه غنيّة جداً بموضوعات أخرى هو أمر غريب .

والصمت نفسه نلاحظه عند بطرس الذي تتحدث رسالته الأولى المؤرخة سنة 64 بإسهاب عن العالم الثاني ، ولكنها لا تذكر كلمة واحدة عن الجحيم . والفقرة التي تتحدث في رسالته الثانية عن الترتار (2 ,4) إنما هي إضافة مزيَّفة من القرن الثاني . ويلاحظ التكتم ذاته في أعمال الرسل المدونة حوالي سنة 80 .

والعبادة الوحيدة التي نجدها عند بولس (رومانيين 10 ، 7 ، وأهل أفسس 4 ، 10 - 8) وعند بطرس (1 ,3 ,19 - 20) تتحدث عن نزول مفترض قام به يسوع إلى مملكة الأموات ما بين الجمعة العظيمة وأحد الفصح . وترد العبارة كل مرة بشكل غامض ولم ترد فيها كلمة جهنم وهي تعني على الأرجح أن يسوع ذهب يخلص الموتى الصالحين الذين ماتوا قبل مجيئه . ومع ذلك فإن عبارة «النزول إلى الجحيم» التي أصبحت رسمية في حين أنها لم تظهر للمرة الأولى إلاّ سنة 359 في «الصياغة الرابعة لسيرميوم Sirmiuma من تأليف مارك دارتوزْ . وسيشتمل عليها «رمز الرسل» وهو مختصر الإيمان الذي تكوّن في القرن الخامس في غاليا واسبانيا وأُدخِل إلى روما في القرن العاشر .

وبمقابل ذلك ، تتحدث الأناجيل بتفصيل أكثر عن الجحيم . فالتباين مع تعاليم بولس في هذا الصدد مدهش ، وهو يثير من جديد المسألة التي تحدث عنها مجدّداً بعض شراح مخطوطات البحر الميت ، مع كثير من التضارب بين بولس والمسيح . ويجب أن نذكر أن الأناجيل هي ثمرة تفكير جماعي داخل الجماعات المسيحية الأولى التي تميزت بروح أسينية ، وجاء تدوينها بعد كارثة تدمير أورشليم سنة 70 ليعزز الفكر الرؤيوي .

إن الجحيم الإنجيلي هو دائماً تقريباً جهنم (Géhenne) وهو مكان محسوس ، «وادي النحيب»» أو (Gi - Hinnom) ، المكان الملعون ، موضع لإحدى العبادات الكنعانية القديمة ، حيث كانت تقدم ، فيما مضى ، الذبائح للبعل مع ، ربما ، بعض الضحايا البشرية . وقد أصبح هذا المكان ، بعد العودة من النفي ، محرقة فسيحة تُحرَق فيه باستمرار جيف الحيوانات والأقذار التي يلتهمها الدود والنيران .

من هنا تعبير مرقس : «إذا شكَّكتكَ عينك فاقلعها ، فخير لك أن تدخل ملكوت الله وأنت أعور من أن تلقى بعينيك الاثنتين في جهنم ، حيث الدود لا يموت والنار لا تطفأ (9 ,47 - 48) . ويصبح الدود والنار بسرعة العنصرين الأساسيين في الجحيم .

ومتّى هو الأكثر استفاضة في هذا الموضوع : «هناك يكون البكاء وصريف الأسنان» (12,8) وهي عبارة تتكرر ست مرات ؛ ويتحدث ثلاث مرات عن «الظلمة البرّانية» وثلاثاً أخرى عن النار الأبدية . ويذكر كذلك «أبواب الجحيم» و «جهنم النار» ويذكر لوقا من جهته قصة لعازار والغني الشرير (16 ,19 - 31) وهي عبارة عن حوار تعليمي كما نرى في الميتولوجيا المصرية : يذهب الغني الشرير بعد موته إلى مكان العذاب حيث يتألم بسبب اللهيب ويسأل إبراهيم نقطة ماء فيرفض أن يعطيها له . ويضيف لوقا إلى هذه القصة المعدة للترغيب في اعتناق الدين الجديد ، ملاحظات حول عدد الناجين القليل : «إجهدوا في أن تدخلوا من الباب الضيق ، لأن الكثيرين سيحاولون الدخول ولن يستطيعوا» .

أما كتابات يوحنا ، ومنها الرؤيا ، المدوَّنة في حدود سنة 95 ، فتعتبر خاتمة تاريخية لأعمال العهد الجديد ، وتصنف ضمن هذا الأدب الخاص الذي تكثر فيه الاستعارات

اللاهبة . «وسيتلقّى الأشرار العذابات في النار والكبريت أمام الملائكة القديسين وأمام الحمَل . ويتصاعد دخان عذاباتهم إلى دهر الدهور لا يعرفون الراحة لا نهاراً ولا ليلاً» (14 ,10 - 11) . ويُرى هناك «بحيرات من النار يشتعل فيها الكبريت» . إن المقابلة بين الناجين والهالكين هي سمة ثابتة للنموذج الأسيني :

إن تعاليم العهد الجديد التي تتحدث عن الجحيم هي ، إجمالاً ، غامضة جداً ومشوَّشة ، فالعهد الجديد يقتبس بعض العناصر من التقليد الرؤيوي ومن الأسينيين ومن جهنم الأرضية ومن الصدمة التي تلت سقوط أورشليم . وهو صورة نموذجية عن عقلية فئة قليلة تواجه العداء المحدق بها من كل جانب كما تواجه حالات الفشل ، وتعتبر هذه الفئة فئة صغيرة من «المختارين» تتوق إلى المكافأة العظيمة الحاسمة .

وعلى أي حال فإن الجحيم لا يشغل سوى حيِّز صغير . ويظل في حالة من الشعور الغامض والتهديد المفترض . وليس من إنجيلي يؤكد أن يهوذا ، شر الخائنين ، هو من الهالكين . وهو ، في عرف البعض ، شنق نفسه . وهو ضحية سقطة بالنسبة إلى الآخرين ، ومصيره ، على أي حال ، ظل مجهولاً .

وانطلاقاً من هذه الأسس الهشة راح التقليد المسيحي ، الشعبي من جهة ، واللاهوتي من جهة أخرى ، يشيد هذا الصرح الجهنمي الضخم لغاية أخلاقية وراعوية وعقائدية في آن معاً .

الفصل الخامس

نشوء جهنم المسيحية

تطور المفهوم المسيحي للجحيم على المستوى الشعبي أوّلاً . إنها الرؤى والكتابات المنحولة التي أعطت النظرات الأولى للكون الجهنمي الكثير التلون . ولم يظهر عمل الفكر ، إلاّ في المرحلة الثانية مع آباء الكنيسة الذين عملوا على معطيات متضاربة . وهكذا جاءت التباينات بين الأدباء عظيمة ويمكن استخدام أعمالهم ، كما يمكن استخدام نصوص الكتاب المقدس ، ذريعة لتبرير وجهات النظر المتناقضة .

والرهبان هم الذين ، في بدايات العصر الوسيط ، وضعوا بصمات مفاهيمهم الصارمة على جهنم بكتابتهم قصص رحلات عديدة إلى هناك يتخذ بعضها طابعاً إيحائياً . ولقد دوّنوا قائمة بالخطايا التي تستوجب الهلاك والعذابات المناسبة لها .

وراح اللاهوتيون المدرسيون من القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر ، يحاولون عقلنة كل هذا المعطى ويحللون التناقضات التي ظلت عالقة . وكانت تصوُّراتهم مقتضبة إلى حد يثير الدهشة إذا قوبلت بالنظرات السابقة . أما لاهوتهم ، وهو البيان المفصّل لحقائق الإيمان فلم يحتفظ إلاّ بمبدأ الجحيم فقط ، دون ذكر الدقائق الأخرى .

I- جهنم في التقاليد الشعبية

إن الحاجة الأكثر إلحاحاً إلى معرفة المصير المستقبلي للناس نشأت في وسط

الجماعات المسيحية المؤلفة ، في قسم كبير منها ، من أناس سذج وبدائيين ، ولدى هؤلاء المعمَّدين الجدد المتعطشين إلى الخلاص والذين يعيشون حياة أرضية صعبة ويطلب إليهم أن يضحوا بحياتهم على أمل أبدية سعيدة ، لدى هؤلاء تبدو الرغبة في معرفة ما سيكون عليه العالم الآخر أمراً مشروعاً . ويهم الكثيرين منهم أيضاً معرفة مصير الهالكين أي كل الذين لم يتعرفوا إلى الإيمان الصحيح وتنعموا بهذه الحياة الدنيا . وليست الرغبة في الإنتقام غريبة عن هذا الفضول : إذ يجب أن تكافأ التضحيات المطلوب أن يقدمها المؤمنون في هذه الحياة ، بمستقبل أخروي سعيد لهم وعقاب الذين كانوا سعداء في هذا العالم . وإن سعادة المختارين ، لدى الكثير من المؤلفين الذين يعبرون عن شعور الشعب مثل ترتليانوس ، ستزداد برؤية شقاء الهالكين .

لكن الكتب المقدسة كثيرة الغموض حول هذه العذابات . فجاء العديد من الكتابات المنحولة والأسلوب الرؤيوي ، تسد هذا الفراغ . وهذه «الكتابات الخفية» المدونة ما بين القرنين الثاني والرابع والتي تبدو كإيحاءات ظلّت سرِّية حتى هذا التاريخ ، طوّرت وحدَّدت النقاط التي تركتها الأناجيل غامضة . وهي تلح ، بفكر عارف ، على المواجهة المباشرة بين المسيح والشيطان أثناء لقائهما في الجحيم . وهكذا نرى في «رسالة الرسل» المؤلفة ما بين سنتين 140 و160 ، في مصر أو في آسيا ، نرى يسوع منحدراً إلى اليمبس ليعمِّد الصالحين والأنبياء . وتوسع إنجيل يعقوب المكتوب بحدود سنة 150م وإنجيل نيقوديموس وإنجيل برتلماوس في الموضوع ذاته .

وفي القرن الرابع تروي «أعمال بيلاطس» بالتفصيل نزول المسيح إلى الجحيم ، مازجة بشكل غريب العناصر اليونانية بالعناصر المسيحية . ويمثّل الشيطان كسيّد المكان ، ولكن هاديس هو الذي يهتم بموتى العهد القديم ــ فيطلب الشيطان من هاديس أن يستقبل نفس المسيح ؛ فيتردد هاديس لأن قدرة المسيح عظيمة ، لقد انتزع منه عدة أنفس وأحياها . وعندما يصل المسيح يأمر هاديس بإقفال أبواب الجحيم النحاسية فيذهب تعبه باطلاً ، لأن المسيح يدخل فيخلص الصالحين ويقبض على الشيطان ، يكبله ويسلمه إلى هاديس .

وتستعيد كتابات منحولة القصص اليونانية والشرقية عن سَفَر الأنفس . وفي «قصة

يوسف النجار» تضطر نفسه بعد الموت ، برفقة الشياطين ، إلى أن تجتاز حواجز عديدة لا تستطيع عبورها إلاّ إذا عاشت حياة نقية . ولكن الحكايات ذات النموذج الرؤيوي هي التي ، بنوع خاص ، تتحدث عن محتوى عذابات الجحيم . وأول وصف مفصّل وجد في «رؤيا بطرس» المكتوبة ما بين سنتين 125 و150 ، والأرجح في الإسكندرية . وتشكل رؤية العذابات نموذجاً أولياً أشبعه الفنانون ترداداً حتى نهاية القرن الوسيط .

«شاهدت أيضاً مكاناً آخر تجاه ذاك في غاية التعاسة . كان محلاً للعقاب . فالمعذبون والملائكة الذين كانوا يقتصون منهم كانوا يلبسون ثياباً سوداً ، كما كان عليه الجو في هذا الموضع» .

«بعض الذين كانوا هناك كانوا معلقين بألسنتهم : وهم أولئك الذين جدَّفوا على منهج العدالة : وتحتهم تتأجج نار تقضّ مضاجعهم» .

«وكان ثمة بحيرة كبيرة مليئة بالوحول الحارة يغوص فيها أناس حادوا عن جادة العدل ويقف فوقهم ملائكة مولَّج إليهم تعذيبهم» .

«وغيرهم نساء معلقات بشعورهنّ فوق هذا الحمأ المسنون المتقد ، وهن أولئك اللواتي تبرجن من أجل الزنا» .

«وكان الرجال الذين شاركوهم في عمل الزنا معلقين بأقدامهم ، رؤوسهم غارقة في الوحول وهم يقولون : «ما كنا لنعتقد أننا سنأتي إلى هذا الموضع» .

وكنت أرى القتلة وشركاءهم مُلْقين في مكان ضيق ، مليء بالأفاعي الشرسة ، وكانت الأفاعي تقتص منهم فيتلوَّون من الألم ، وتسرح فوقهم ديدان شبيهة بغيوم سوداء . وكانت نفوس ضحاياهم هناك تنظر إلى عقوباتهم ، قائلة : «ما أعدل حكمك ، يا الله» .

«ورأيت ، قريباً جداً من هناك ، مكاناً آخر ضيقاً يسيل فيه الصديد والنتن من الذين كانوا عرضة للتنكيل فيجتمع من ذلك ما يشبه البحيرة . وهناك كانت نساء يرقدن في هذا الصديد حتى الأعناق ، وقبالتهن يرقد عدد كبير من الأطفال الذين وُلدوا قبل موعد الولادة وهم يبكون ، ومنهم كانت تنطلق نوافير من اللهب تضرب النساء في أعينهن . وكانت هذه النسوة من أولئك اللواتي حملن سِفاحاً وقتلن أولادهن» .

استُعيد هذا المشهد وطُوِّر ما بين سنتي 240 و250 في نص مصري آخر يُدعى رؤيا بولس وبه يستشهد دانتي . ويصل بولس ، بصحبة ملاك ، إلى نهر النار ويشهد هذه العذابات . ويؤكد له الملاك أن هناك ، إجمالاً ، 144000 حالة متنوعة . والكثير من هذه الحالات اقتبس من الميتولوجيات الشرقية التي أوحت بموضوع الجسر الذي يسقط عنه الخطأة .

ويغوص الدَّنسون في المياه السوداء حتى سُرَرِهم ، وهم الذين تلذذوا بمآسي الآخرين حتى حواجبهم ، واحترق الذين أساؤوا إلى اليَتامى بنار من جليد . والمرابون يلتهمون ألسنتهم هم . وألف نفس معلقة بدولاب من لهب يدور ألف دورة في النهار ، وهكذا دواليك . وتتوقف هذه العذابات مرة في الأسبوع . وسيذكر في رؤيا حسدراس ، وللمرة الألى اسم أحد الهالكين : إنه هيرودس .

ومنذ القرن الثاني استعملت جهنم كأداة راعوية من قبل المدافعين عن الدين المسيحي البارعين في استخدام سلاح الخوف . ونرى الشهادة الأولى على ذلك عند القديس يوستنيانس في القرن الثاني :

«قد يقال ، على طريقة المتفلسفة ، إن ما نقوله عن معاقبة الخطأة في النار الأبدية ليس سوى كلام بكلام أو أدوات ترويع . وإننا نريد أن نجر الناس إلى الفضيلة بالتخويف وليس بمحبة الخير . أجيب على ذلك بكلمات قليلة . فإذا كان ذلك غير موجود فإن الله أيضاً غير موجود ، أو إنه إذا كان موجوداً فهو لا يعبأ بالبشر ، فالفضيلة والرذيلة ليستا شيئاً . والمشترعون يعاقبون ظلماً ، من يخالفون الوصايا الصالحة» .

«[. . .] ستجدون فينا أكثر بكثير مما تجدون في سوانا ، مساعدين وأعواناً من أجل السلام لأننا نعلم أن لا أحد يستطيع أن يهرب من أمام الله : الشرير ، البخيل ، الخائن ، حتى ولا الإنسان الشريف . وكلٌّ حسب أعماله يلقى العقاب أو الخلاص الأبدي . لو عرف كل الناس ذلك لما اقترف أحد جريمة للحظة واحدة ، لعلمه أنه يستوجب العذاب الأبدي في النار . بل لكان احتاط لنفسه على أي حال وازدان بالفضائل كي ينال الخيرات التي وعد بها الله ويتحاشى العذابات» . (الدفاع التاسع) .

ويجهد مينوسيوس فيليكس[1] في كتابه «أُكتافيوس» في أن يبرهن ، ما بين سنتي 200 و245 ، الاستمرارية بين الجحيم الوثني في الإنياذة والجحيم المسيحي ، مصوّراً الأول كأنه اقتباس من التوراة . إن حديث رعاة الكنيسة عن الخوف عادت إليه «رسالة إلى ديونييت (Diognète) حوالي 190 ـــ 200 كما عاد إليه خاصة ترتليانوس . إن نفوس الأموات هي ، بالنسبة إليه في هاديس تنتظر استحقاقاً قائماً ، ولكن الأشرار بدأوا يحترقون وهم ينتظرون عذابهم المعد لهم الذي يبدأ في نهاية العالم . ويتلذذ ترتليانوس بذلك مسبقاً ، إذ يقول : «أنا من سيضحك [. . .] عندما أجد كل هؤلاء الفلاسفة يُشْوَون مع طلابهم الذين علموهم أن الله لا يهتم بهذا العالم» .

إن هذا الخوف من النار الأبدية ساعد الشهداء على تحمل التنكيل بهم كما تشهد على ذلك «أعمال الرسل للقديس پوليكارپوس» الذي قتل سنة 156 . فهو يصرح أن المحرقة كانت تبدو لهم باردة لأنها كانت تبعد عنهم ناراً أكثر هولاً .

ويتطور الجحيم الشعبي تلقائياً ويغتني بسرعة بما اقتبسه من الديانات الأخرى لملء الفراغات التي تركها الوحي وليوفّر للمؤمنين انتقاماً من الأقوياء والأغنياء والمتمتعين بالحياة ، وهم ، على الأخص ، الجشعون والبخلاء والزناة والشرهون والكسالى والمتكبرون الذين نشاهدهم في جهنم . ولكن ما يخشى هو ذاك الفيض من المعتقدات في هذا الخيال الجنح . ولهذا انبرى المفكرون المسيحيون الأول وآباء الكنيسة ، إلى تنظيم الموضوع وعقلنته وتصور جحيم يتلاءم مع معطيات الكتاب . لقد بذلوا الكثير من الطاقة دون أن يتوصلوا إلى حل لجميع المسائل .

II ـ أسس العقيدة:
آباء الكنيسة

إن في حوزتنا الكثير من التفسيرات ، ومن هذه التفسيرات واحدة تطورت خاصة

(1) كاتب لاتيني مسيحي مؤلف كتاب Octavius وهو حوار بأسلوب شيشروني يقدم المسيحية إلى المثقفين . ـــ م ـــ .

في الإسكندرية ، المركز المدني العظيم ، وهي ترى في الجحيم معنى رمزياً وانتقالياً . إن وجود مكان للعذابات الحقيقية الأبدية ، بالنسبة إلى هذا الفريق الأول من المفكرين ، لا يتلاءم مع الرأفة الإلهية . فمنذ بداية القرن الثالث يصف كليمنس الإسكندري نار جهنم بأنها استعارة تعني تأنيب الضمير لدى الهالكين . إنها نار روحية تتغلغل في النفس . وقد تبنَّى هذا المفهوم تلميذه أوريجانوس الذي يرى أن عذاب الخاطىء يأتي من كونه وضع نفسه خارج التناغم الكوني الذي خلقه الله ، الأمر الذي يسبب له هذا التمزق . وفي منتهى الدهور تعود الخليقة كلها إلى حضن الله ، في خلاص شامل . إنها عقيدة «الأپوكتستاز» (L'apocatastase) التي ترى احتمال خلاص الشيطان نفسه وخلاص أعظم الخطأة . «ولك ، أيها القارىء ، أن تحكم في ما إذا كانت هذه الفئة من المخلوقات ستكون مرذولة من الوحدة والتناغم النهائيين سواء في الدهور المحدودة بزمن أو في الدهور التي تستمر إلى الأبد» .

وفي القرن الرابع اتخذ ديديموس الأعمى والقديس أمبروسيوس على حد سواء ، هذا الموقف الرحيم . وبالنسبة إلى القديس أمبروسيوس وحدهم الكافرون والزنادقة يخلدون في جهنم . ويخلص المسيحيون بواسطة الإيمان وسر العماد .

ويتبنّى غريغوريوس النيصي عقيدة الأپوكتستاز ، فالجحيم بالنسبة إليه هو مكان تطهير فقط ولا حاجة إلى بقائه عندما يتطهر جميع الأشرار من شرورهم . ووردت في إحدى العظات الدينية (Oratio catechica) جملة تتضمن معنى الخلاص النهائي للشيطان : «إن الله المتجسد هو مصدر كل ما قيل ، منجياً الإنسان من الرذيلة وشافياً صانع الرذيلة نفسه» .

وكان القديس جيروم في بداية القرن الخامس متردداً وكان يدعم مواقف متناقضة ليست بريئة من نوايا عملية مبيتة . ولكنه في «التعليق على الرسالة الموجهة إلى أهل أفسس ، يؤكد وجود جهنم حسية ذات نار وديدان حقيقية . ويبدو في «شروحه لإشعيا» سنة 410 ميالاً إلى مفهوم أوريجانوس مع تسريبه قوله إن هذه الحقيقة ليست صالحة لتذاع بين الشعب ، الذي يحتاج إلى تهديد جهنم أبدية ليعيش حياة صالحة : «يقال إنه يجب الإحتفاظ بالصمت حول هذا الموضوع ليظل الخوف مسيطراً» ، على الذين يكون الخوف بالنسبة إليهم وسيلة للهرب من الخطيئة . أما نحن فعلينا أن نترك

للّه مهمة أن يرى الحدود التي يجب أن يفرضها على رحمته وعلى العقوبات أيضاً . فمن شأنه أن يعيِّن ممن يقتص وكيف ومتى» . (من شروحات إشعيا ، XVIII) .

إن الفائدة العملية لجهنم مادية وأبدية ، كتهديد بأقصى العقاب لكي يحتفظ المؤمنون بالطريق القويم ، ربما كانت السبب الأساسي لفشل تيار أوريجينوس . وسيظل الخوف من الجحيم ، حتى القرن العشرين الحجة النهائية للسلطات الكنسية . ومن ناحية أخرى ، قد يفسر انتصار الرأي المتشدد بتأثير القانون الجزائي في الإمبراطورية بعد قسطنطين ، وقد كان صارماً إلى حد بعيد . وفي هذا العصر ألف آباء الكنيسة الذين خضعوا لتأثير المفاهيم القضائية الديوانية (البيروقراطية) والشكلية لمحيطهم . وإن تاريخ الدينونة والعذابات في العالم الآخر يوازي تاريخ العدالة الإنسانية إلى حد غريب .

وكانت فكرة الجحيم ، في القرن الثالث مع القديس قبريانوس الذي كتب وسط الاضطهادات (قطع رأسه سنة 258) ، تواجه ببعض الحبور كانتقام عظيم من الوثنيين المضطهدين ، الذين تزيد عذاباتهم من فرح المختارين .

«كم سيكون عظيماً يوم الدينونة ! عندئذ سيمتحن الله شعبه وبدقة معرفته الإلهية سيتحقق من استحقاقات كل واحد ، وسيرسل المجرمين إلى جهنم وسيجازي مضطهدينا بالحرارة الدائمة للنار الثائرة ، وسيجزينا عن إيماننا وتقوانا . وعندما يحين وقت هذا التجلي ، عندما يشرق مجد الله علينا ، سنكون سعداء وفرحين بأن تشرفنا رحمة الله . فيما يظل في حالة الاتهام والتعاسة أولئك الذين ، بعد أن تخلوا عن الله ، أو تمرّدوا عليه ، نفذوا إرادة الشيطان . إنهم طبعاً سيكونون مع الشيطان يُحرقون بنار لا تنطفىء» (رسالة 58 ، 10) .

وإن الجحيم ، بالنسبة إلى هيپوليت الرومي ، وأناستاز وكيريلُّس الأورشليمي وكيريلُّس الإسكندري ، لا يبدأ إلاّ عند الدينونة الأخيرة ، لكن من الممكن بانتظار ذلك ، أن يوضع الهالكون جانباً وتعرض أمامهم العذابات التي تنتظرهم ، ويتناقشون طويلاً حول طبيعة نار جهنم : إنها نار مادية تؤثر في الجسد وفي النفوس ، لا تحتاج إلى وقود وهي تعيد خلق الجسد بمقدار ما تلتهمه . ويرى غريغوريوس النازيَني نوعين من النيران : واحداً يطهر وآخر يعاقب .

ويقترح يوحنا فم الذهب ، في القرن الرابع ، مفهوماً كثير التشدد فيقول : إن جهنم مادية وأبدية ، وكل الوثنيين بلا استثناء نصيبهم النار لأنهم لم يُفْتَدوا بالعماد ، ولا يمكن أن يفعلوا إلاّ الشر . أمّا إذا فعلوا الخير ، فذلك إمّا بنزعة طبيعية ، فلن يكون لهم بالتالي أي أجر ، وإمّا ليعطوا لذاتهم قيمة وليس ذلك إلاّ من قبيل التكبر : «لأنه إذا كان وعد السماء وتهديد جهنم لا يكفيان لوضع الناس على طريق الفضيلة فإن الذين لا يؤمنون بشيء تكون ممارستهم للفضيلة دون ذلك بكثير . وإذا وجد من يمارسها فإنّما يفعل ذلك من أجل الشهرة : والحال فإن من يفعل الخير كل مرة ، من أجل الشهرة يجدْ نفسه مغموراً فيستسلم بلا تحفظ لرغباته الشريرة» . (العظة الأولى عن القديس يوحنا ، XXVIII , 2) .

أما واقع القصاص الأبدي عن أخطاء عابرة فليس إلاّ أمراً طبيعياً جداً : ألاّ تقتصّ العدالة البشرية من أخطاء لحظة بعقاب مؤبد؟ والمؤبد ، في العالم الآخر ، هو الأبدية .

والقديس أغسطينوس هو الذي أعطى ، في بداية القرن الخامس ، صيغة شبه نهائية للجحيم المسيحي في خطوطها الكبرى . وإن الهالة التي تمتع بها في شكل دائم في تاريخ الكنيسة أعطت أفكاره أهمية خاصة . والحال فإن أبحاثه أعمال جدلية تزيد ملامح الجحيم صلابة إلى حد عظيم . ويكون مفهوماً متمزمتاً كردّة فعل على هجمات الوثنيين والتيّارات المتسامحة .

ويدان بعذاب جهنم الأبدية ، استناداً إليه ، كل الوثنيين ، ضحايا الخطيئة الأصلية ، كل الأولاد الذين ماتوا ولم يتقبلوا سر العماد ، وكل المسيحيين الذين يمعنون في الخطيئة . ولا تبدأ جهنم فعلياً إلاّ عند الدينونة الأخيرة ومن الآن حتى ذلك الزمن ، يتألم الهالكون كما يظهر ذلك في مثل أليعاز والغني الشرير . وستزداد عذاباتهم إبتداءً من نهاية العالم ، وستكون النار العنصر الأساسي للعذاب ، وهي نار مادية تحرق الجسم والنفوس دون أن تفنيها . ويتصور القديس أغسطينوس ناراً مطهرية مؤقتة للذين ليسوا في غاية الصلاح» ، وناراً أبدية ، أقل حدة «للذين ليسوا في غاية الشر» .

وتكوّن في نهاية عصر آباء الكنيسة مفهومان متكاملان عن جهنم . مفهوم شعبي

متفرع عن الرؤى والكتابات المنحولة طورته وأغنته ، في العصر الوسيط ، التصورات الرهبانية ، ومفهوم فكري ظل يحتضن الكثير من التساؤلات وقد دققه وهذبه اللاهوتيون الكلاسيكيون .

III ـ جحيم التصورات الرهبانية

إن المفهوم التقليدي للجحيم المسيحي مدين بالكثير للأوساط الرهبانية التي تواجه الخلاص بطريقة محدودة جداً . إذ تحتفظ بالسماء لنخبة فاضلة والهلاك للعدد الأكبر من الناس . ومنذ البدايات الأولى تنمي الحياة الرهبانية المرتكزة على وجود تقشفي زهدي ترتاده قوى الشر تكراراً وتراوده ، تنمي التبحر في الجحيم . وجماعة الرهبان المؤلفة غالباً من عقليات بدائية نشأت وسط المعتقدات الشعبية وتعيش في جو مقفل ، كثيراً ما تستسلم إلى الحكايات المدهشة الوهمية يلعب فيها المجرِّب ، الشيطان ، دوراً أساسياً .

ومنذ القرن السادس راح سيزير دارْل (d'Arles) الراهب في دير ليرنيس (Lérins) الذي أصبح أسقف آرل ، يستخدم في عظاته ، التخويف من الجحيم على نطاق واسع جعل البعض يتهمه بالإسراف . ويشرح أفكاره في إحدى عظاته قائلاً :

«أطلب إليكم يا أخوتي وأعزائي ، وأنصحكم بتواضع عظيم : ألاّ يغضب أحد منكم عليّ وألاّ يعتبر ، ربما ، في غير محله أو نافلاً ، الواقع الذي أجهد في أن أجعلكم تسمعونه تكراراً . وهو أن يوم الدينونة يجب أن يكون موضوع خشيتنا وموضوع هولٍ خلاصي [. . .] . وربما خطر ببال أحدكم أن يقول : «لماذا يعظوننا دائماً عن أشياء قاسية إلى هذا الحد؟» وذلك لأنه من الأفضل أن يعاني الإنسان في هذه الحياة شيئاً من المرارة لكي يصل بعد ذلك إلى السعادة الأبدية من أن يحصل هنا على فرح مزيّف ويتحمل هناك عذاباً لا ينتهي» .

ففي الأديرة استمرت إذاً تقاليد قَصص السَّفَر إلى الجحيم ، وذلك في شكل رؤى مندمجة بوقائع تاريخية لكي تضفي عليها أكبر قسط من الحقيقة . فإن «تاريخ إنكلترا الكنسي» من تأليف بيد (Bède) الجليل وهو راهب أنكلوسكسوني من دير جارّو -Jar row ، في القرن الثامن ، يتضمن أربع رؤى جهنمية : رؤية الراهب الإرلندي ، فورسي

(Fursy) ، الذي تفارق نفسه جسده فيقودها ملاك إلى زيارة جهنم ، ورؤية دريكتلم (Drycthelm) وهو رجل من نورثمبرلاند (Northumberland) مات ذات مساء وقام في اليوم التالي . رؤيةقائد جيش ملك ميرسيا (Mercie) . ورؤية راهب لا يحترم الحياة الرهبانية . فلكل قصة مغزى أخلاقي طبعاً . يصل دْريكْتِلْم إلى حافة بئر فيرى ألسنة لهب جبارة تخرج منه وكتلاً من الشرر هي عبارة عن أرواح الموتى المقذوفة في الفضاء . «وقفت هناك لفترة طويلة مذعوراً لا أعرف ماذا أصنع ولا ماذا سيحدث لي ، عندما سمعت بغتة ورائي صوت أنين مبرّح وبائس تصحبه قهقهة مرعبة كما لو أن رعاعاً يضحكون من أعداء مكبلين بالسلاسل . وإذ كان الصراخ يتعالى ويقترب شاهدت جماعة من الأشرار يجرون خمس نفوس بشرية تصرخ وتئن نحو الهاويات المظلمة فيما كان الشياطين يقهقهون ويهللون . ورأيت بينهم رجلاً حليق الرأس على طريقة رجال الدين ، وعلمانياً وامرأة . واقتادتهم الأرواح الشريرة إلى جوف البئر الملتهب ، وفيما هم يغوصون هناك ، لم يعد باستطاعتي أن أميِّز بين بكاء الرجال وقهقهة الأبالسة ولكن كنت أسمع فقط ضجيجاً مشوشاً» (تاريخ الكنيسة والشعب الإنكليزيين V ، 12) .

ولنذكر ، من رؤى العصر نفسه ، رؤيا راهب من ونلوتش (Wenloch) يرويها راهب آخر هو القديس بونيفاس . ورؤيا الراهب سنيولف (Sinniulf) نقلها غريغوريوس التوري (من Tours) . ونجد في كل مرة ذكر الجسر الذي يمتد فوق السعير ، والأكثر طرافة هي رؤى الرهبان الإرلنديين الذين ترتبط موضوعاتهم بكثلكة استقلت عن روما منذ زمن بعيد .

وإحدى أشهر الحكايات هي «سفَر القديس براندان» التي يعود تاريخها ، دون ريب ، إلى القرن التاسع ، وهي تروي كيف أن هذا الراهب ، يصل بعد إبحار طويل قبالة جزيرة مشؤومة ، مكوَّنة من صخور كلسية تخرج منها أصوات منافخ الحدادة والمطارق . وعلى إحدى الجزر الصغيرة ، يهوذا الأسخر يوطي يتمتع باستراحته الأسبوعية ، التي تمتد من مساء السبت إلى الأحد بعد صلاة العصر ، وهو يروي عذاباته مفصلة بعناية :

«تعذبت هناك مع هيرودس وبيلاطس وحنة وقيافا . سُمِّرت يوم الإثنين على الدولاب وأخذت أدور كالريح . ومُدِّدت يوم الإثنين على خشبة مغروزة بالمسامير

وحُمِّلت الصخور : أنظروا إلى جسمي المدروز بالثقوب . ويوم الأربعاء غُليت في الزفت إذ أصبحت كما ترون . ثم غرز جسيم بالسفافيد وشُويت كشقة من اللحم . ويوم الخميس أغرقت في هاوية حيث تجمَّدْتُ وليس من عذاب أمر من صبَّارة القر . وسلخ جلدي يوم الجمعة ، وملِّح ، وزقمتني الأبالسة نحاساً ورصاصاً ذائباً . ويوم السبت ألقيت في سجن نتن فيه العفونة من القوة ما جعل قلبي يقفز إلى شفتيّ . هذا ما عدا النحاس الذي سُقيتُه . ويوم الأحد تراني هنا أبترد» . إن فكرة الإستراحة الأسبوعية توجد أيضاً في إيطاليا حيث نرى ، في القرن الحادي عشر ، وفي پوتسوليس (Bouzzoles) عصافير سوداء تطير كل سبت ، إنها نفوس الهالكين تذهب لتستريح .

ونعثر ، في بداية القرن السابع ، عند غريغوريوس الكبير ، وهو راهب أصبح بابا ، على عدة رؤئ تعيد الجسر من جديد إلى المسرح ولكنه يجتاز نهراً أسود نتناً تحتشد فيه الأبالسة . ونقرأ فيها قصة رجل يدعى إسطفان أرسل إلى جهنم خطأ فأعاده الشيطان إلى الأرض بعد أن أدرك أن في الأمر سوء تفاهم :

وتكاثرت الرؤى الرهبانية في القرن الثاني عشر وإحدى أهمها رؤيا البنديكتي ألْبريْكْ دو ستِّفْراتي (A de Settefrati) حوالي 1130 . فبعد أن سقط في غيبوبة اختطفته حمَامة واقتاده القديس بطرس وملاكان إلى الجحيم حيث رأى عذابات مبرحة على مقدار الخطايا المقترفة : فالنساء اللواتي لم يرضعن أطفالهن يعلّقن بأثدائهن ويُرضعْنَ الأفاعي . وأثناء غيبوبة أيضاً تزور الجحيم نفس شريف إرلندي يدعى تونغدال وذلك بصحبة ملاكه الحارس . فهذه الرؤيا التصويرية البارعة التي كتبها حوالي سنة 1150 أحد الرهبان الإرلنديين كانت مصدراً خصباً استوحى منها الفنانون وخاصة الأخوة ليمبورغ الذين خلّدوا الصورة المركزية في منمنمة من «ساعات الدوق برِّي الفنية» : ففي أعماق الجحيم شيطان عملاق كثيف الشعر مربوط إلى أداة تعَذيب وفحم مضطرم ، يتلوَّى من الألم . فيسحق صُدْفَة تارة بأيديه الألف جماعات من الهاكلين ويقذف طوراً جماعات أخرى إلى ارتفاعات مذهلة بلهفة طاعونية حارقة . إن رؤيا تونغدال تطفح بالخيال : وادٍ جهنمي مرصوف بالفحم المضطرم يعلوه غطاء حارق يسقط فيه من قتلوا آباءهم وإخوتهم فيذوبون ويتقطرون

على الأطراف كالشحم ثم يتصاعدون بخاراً ثم يتخذون شكلهم الأساسي من جديد ويعودون إلى السقوط . والفاجرون يلتهمهم ، في بحيرة من جليد ، مسخ ذو منقار من جديد ، يهضمهم ثم يقذفهم برازاً . وتنقف أفاع في أحشائهم ، فتفجر جلودهم لتخرج منها ، وفي مكان آخر هالكون يحمّون على نار بيضاء فيسحقون ويُلْحمون معاً بضربات المطارق .

وبين سنتي 1190 و 1210 وصف أحد الرهبان الإنكليز المدعو هـ . دو سالتري «مطهر القديس پاتريك» وقد جعل مدخله ثقباً تضعه التقاليد الشعبية منذ ذلك العصر في جزيرة في بحيرة ديرغ (Derg) . وهو مكان يقصده الحجاج حتى يومنا هذا بالرغم من تحفظات الكنيسة عليه . والرؤى الجهنمية هي من الكثرة بحيث إنه منذ سنة 1060 جمع الراهب أوتلوه (Otloh) منها كتاباً دعاه «كتاب الرؤى» . وفي سنة 1206 روى الراهب روجيه من وندوڤر ، من دير سان ـــ ألبانس ، رؤيا قروي من رعية لندن يدعى ثورْ تشل . حبكت أكثر هذه القصص لإدانة نقائص خاصة . وبعضها الآخر يؤدي دوراً سياسياً إذ ترسل إلى جهنم الأشخاص الذين يناقضون رأي المؤلف . فعلى سبيل المثال لقد حكم على شارل مارتل بأنه هالك في رؤى القرن التاسع لأنه اغتصب الأملاك الكنسية .

IV ـ جهنم اللاهوتيين

إن جهنم اللاهوتيين ، الأكثر رزانة والأكثر اعتدالاً ، هي بنية عقلانية ترتكز على الكتاب المقدس ، لكنها تخضع لمؤثرات القانون والفلسفة . ترسخت مفاهيمها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . وتضيف الجدلية إليها هم الوضوح والتمييز . ويلطف الحق القانوني ، مع غراتيان وپيار لومبارد ، من دراسة الحالات الفردية . ويصبح الحق المدني ، الذي يطوره المشترعون ، على مثال الحق الروماني ، أكثر وضوحاً ودقة . والحال ، إن اللاهوتيين الذين يكوِّنون مفهوم الجحيم ، غالباً ما يكونون حائزين على درجات في الحق المدني والحق القانوني . وفي حدود سنة 1140 ، يرتب غراتيان «في مرسومه» الناس أربع فئات : الصالحون ، الأشرار ، وغير الصالحين تماماً وغير الأشرار تماماً . ويميز پيار لومبارد ، حوالي سنة 1155 في مؤلفه «أربع كتب من الحِكَم» درجات من الشر ويقترح عقوبات جهنمية مختلفة .

والله ، على صورة الملك ، هو قاضٍ قبل كل شيء ، وتتخذ هذه الوظيفة المحل الأول إبتداء من القرن الثاني عشر . كما تشهد على ذلك النقوش على أبواب الكاتدرائيات والكنائس : المسيح الحاكم أو القاضي ، كاتدرائية مدينة كونك (Conques) ، ما بين سنة 1130 وسنة 1150 ثم في أوتون وفي سان ــ دنيس . ويتسع المشهد في القرن الثالث عشر لتصبح الدينونة محاكمة طبقاً للأصول المرعية : يحضرها الرسل والملائكة ، القديس ميخائيل يزن الأعمال ويوحنا ومريم يتوسطان طالبين الرحمة . ويعطي جوليان الڤازلياني (من Vézelay) في مواعظه ، الدينونة الأخيرة صيغة قانونية مع شهود ومرافعات وأحكام ؛ وللعقوبات سمة القساوة كالأحكام التي تصدر عن المحاكم الإقطاعية . وكما في هذه المحاكم فإن الله حاكم وخصم لأن الخطايا هي إهانات موجهة ضِدّه .

وأصبحت العقوبات في القرن الثالث عشر إفرادية وترسخ التمييز بين الخطايا العرضية والخطايا المميتة . وهذه الأخيرة وحدها تؤدي إلى الهلاك الأبدي . ونتيجة لذلك تدعم دور الكنيسة في الشفاعة لأن الإعتراف الذي صار إجبارياً كل عام منذ سنة 1215 وسر التوبة يحلان من الخطايا ، والكنيسة تمسك بيديها مفتاح جهنم والجنة .

وبالرغم من أنه لا يوجد جدول بالخطايا المميتة فإن بعضها اشتهر بأنه خطير بفعل التطور الثقافي . ففي القرون الأولى ، في عصر الاضطهاد اعتبرت الردة إثماً يستحق الإدانة . وفي العصور الميروفنجية عندما كانت الكنيسة تحاول إقامة نظام اجتماعي كان عقاب التعرض لهذا النظام الهلاك الأبدي : واعتبر سيزير الآرلي أن الخطايا الخطيرة هي القتل والسرقة والسكر والغضب والشهادة الكاذبة وانتهاك المقدسات . ومع تصاعد دور الفروسية في النظام الإقطاعي وتطور التجارة انتقلت الشهوات والكبرياء إلى الصف الأول ، وبتأثير الأديرة امتلأت الرؤى الجهنمية بالمتكبرين والجشعين والدنسين أي أضداد النذور الرهبانية الثلاثة وهي التواضع والفقر والعفة .

ومن الأسئلة الكلاسيكية التي يناقشها اللاهوتيون السؤال المقلق الذي يتعلق بعدد الهالكين . والإتجاه متشائم إلى حد ما ، إذ يقول توما الأكوني : «إن الناجين قليلون» ويعتقد معاصره القديس بوناڤنتورا (1217 - 1274) مستعيناً بصيغة مستوحاة من

القانون المدني إن الهالكين أكثر عدداً من الناجين لكي يظهر أن الخلاص نعمة خاصة بينما الهلاك ينشأ من العدالة العادية» .

وموضع الجحيم يثير أيضاً مشكلة ، فإذا ظن هونوريوس دوتون ، في بداية القرن الثاني عشر ، أن الجحيم هو لا شك حالة فكرية ولا يمكن أن يكون لها موضع مادي ، مقتبساً هكذا رأي مواطنه الإرلندي الشهير في القرن التاسع ، جان سكوت أريجين والآخذون بهذا الرأي ظلوا أقلية : وأكثر المؤلفين يضع الجحيم في أعماق الأرض ويبحثون عن مدخله إمَّا في إرلندا أو بالأحرى في صقلية أو في جنوبي إيطاليا تبعاً لتقليد يستند إلى سلطة غريغوريوس الكبير . ويصرح جوليان دو فيزلاي في منتصف القرن الثاني عشر أن المحكوم عليهم بعذاب جهنم يدعون «إتنيين» بسبب جبل إتنا (Etna) . أما توما الأكويني الذي يصطدم عقله بصعوبة هذه المسألة فيحاذر السؤال كاتباً في المجموعة اللاهوتية أن ليست «الكائنات غير المادية في المكان على الطريقة العادية والخبرية التي بواسطتها نقول إن من خاصة الأجسام أن تكون هناك . غير أنها هناك بوسيلة خاصة يستحيل علينا أن نعرفها معرفة تامة» .

أما بشأن العذابات التي يتعرض لها الهالكون فقد كانت حافزاً على نشوء نظريات لا تحصى يتعذر فيها على اللاهوتيين أن يكبحوا جماح مخيلاتهم . وأشهر تصنيف لهذه العذابات هو ما ورد في توضيح هونوريوس دوتون الذي تصوّر منها تسعة : النار ، البرد ، أفاع ضخمة ، النتن ، ضجيج يصم الآذان ، ظلمات بلغت من الكثافة حداً يمكن معه لمسها ، الخجل ، رؤية رؤوس شياطين كريهة المنظر ، سلاسل من النار تكبل المعذبين . يجب أن نقرأ وراء هذا التعداد قلق إثارة الألم المحض الذي يصيب الحواس الخمس والضمير .

إن أقسى الجهود المبذولة لعقلنة الجحيم هو لا شك جهد توما الأكويني . ومع ذلك فإن حيرة هذا الراهب الدومينيكاني برزت حول نقاط كثيرة كمسألة موضع جهنم التي أتينا على ذكرها . ولقد تطرق إلى مسألة الجحيم في مواضع متفرقة ، في «المجموعة ضد الأمم» (1263 - 1264) وفي معالجة مسألة الشر (1266 - 1267) وفي المجموعة اللاهوتية (غير كاملة 1274) .

ويعلن توما الأكويني احتقاره للرؤى والحكايات وحده ، معتمداً على الكتاب المقدس ، يستطيع أن يعرفنا بطبيعة هذه الأمكنة ، ويحاول اللاهوتي أن يجيب على جميع الأسئلة الكبيرة التي تثيرها مثل : متى؟ أين؟ كيف؟ لمن؟ إلى متى؟ وأخيراً ، التساؤل الموجع ، لماذا؟

متى؟ بدءاً من لحظة الموت ، كنتيجة للدينونة الخاصة ؛ وتؤجل الدينونة الأخيرة إلى ساعة الإحتفال الرسمي لإذاعة النتائج . أين؟ كما في مكان ما» (Quasi in loco) . كيف؟ يلقى الهالكون نوعين من العذاب : عذاب الجحيم وعذاب الحواس . الأول ، فكري بحت ، لا يمكن تصوره ولكنه رهيب : وهو الشعور بأن يكون المعذب منفصلاً عن الله إلى الأبد ؛ والثاني أداته النار ، النار التي خلقها الله خاصة لحرق الأجسام والنفوس معاً . إن العذابات المختلفة التي تتحدث عنها النصوص يجب أن نأخذها بالمعنى الروحاني . لمن؟ لكل الذين يموتون في حال الخطيئة المميتة ، الذين يموتون دون أن يتقبلوا سر العماد ، أولاداً ووثنيين ، موصومين فقط بالخطيئة الأصلية ، يذهبون إلى اليمبوس ، حيث لا يلقون إلاّ عذاب الجحيم . إلى كم من الوقت؟ إلى دهر الداهرين ، الأمر الذي يستتبع السؤال الأخير حتماً : لماذا؟ أو بالأصح : كيف يمكن لإله في غاية الرحمة أن يحكم على خليقته الخاصة بعذابات أبدية؟ ويكثر توما الأكويني من التبريرات وهذا الركام من التبريرات بحد ذاته هو مصدر تخبطه في الحيرة . فالأسباب التي يعطيها هي ذات طبيعة منطقية بحتة ، ذات منطق تجريدي بارد . وهي عاجزة عن الإجابة على سؤال لا يكون عقلياً بل عاطفي . حب لا ينتهي من ناحية ومنطق صوري من ناحية أخرى : تساؤلات وأجوبة ليست من مستوى واحد ولا تستطيع أجوبة توما الأكويني المدرسية أن تقنع خصوم الجحيم . إنها عديدة ، فالخطيئة المميتة تقلب حتى مبدأ النظام الكوني ، إن غلطة لا تصلّح لا يمكن لقصاصها إلاّ أن يكون أبدياً . أن يكون الإنسان في حالة الخطيئة الأصلية هو أن يكون بملء اختياره في موقف لا يستطيع الخروج منه بقواه الخاصة . إذا كان المخلوق يعيش إلى الأبد فمعنى ذلك وضع المخلوق فوق الخالق ، عمل مطلق وخيار حاسم يتتابع إلى ما لا نهاية . وذلك يعني أيضاً أنه يجب أن يدان دينونة أبدية . إن العذاب يتناسب مع كرامة الشخص المهان : الإساءة إلى الله الأبدي تستحق عذاباً أبدياً .

والمخلوق الزائل لا يمكنه أن يتعذب بقساوة متناهية . يجب إذاً أن يعوض ذلك بدوام التعذيب .

لا تحتفظ العقيدة أي العرض الرسمي للإيمان ، من هذه الأفكار إلاّ بالشيء الجوهري وبحذر وإمهال . إنه قانون إيمان القرن الرابع . وقد ذكرت «العذابات الأبدية» للمرة الأولى في قانون إيمان القرن الرابع ، وفي سنة 543 يعلن مجمع القسطنطينية حرمان عقيدة الأپوكتستاز .

وعلينا أن ننتظر سنة 1201 لكي يؤكد البابا إينوقنتيوس الثالث وجود عذاب جهنم وعذاب الحواس بينما مجمع لاتران سنة 1215 ومجمع ليون سنة 1274 يؤكّدان أبدية العذابات .

وأخيراً يعلن مجمع فلورنسا سنة 1439 رسمياً ما كان يعلّمه اللاهوتيون منذ مدة طويلة : «تؤمن الكنيسة الرومانية المقدسة بثبات وتقر وتعلن بأنه لن يتمتع بالحياة الأبدية ، لا الوثنيّون ولا اليهود ولا الملحدون ولا كل من انفصل عن الوحدة بل على العكس من ذلك يخلدون في النار الأبدية المعدة للشيطان وملائكته إذا لم يتحدوا بها قبل أن يموتوا» .

إذاً لقد اتخذ الجحيم المسيحي مكانه ، ولقد بدأ يثير استنتاجات وفوارق وأيقظ حماسة المقلدين .

الفصل السادس

فروع جهنم المسيحية

إن جهنم المسيحية الجيِّدة الإعداد ، بالرغم من أنها لم تحدَّد تحديداً كاملاً ، لقد غدت ، في العصر الوسيط ، النموذج ــ المثال الذي لا يمكن الإحاطة به والذي يفرض نفسه على الوعي الفردي وعلى ناشري الدعوات الدينية . وابتداءً من القرن السابع ، يستوحي منه التقليد الإسلامي على نطاق واسع ، ولكنه يحتفظ منه بالمظاهر الشعبية ، ويبدو متردداً فيما يخص مشكلة الخلود الأساسية . وفي قلب المسيحية تعترض بعض الحركات الملحدة ، بشكل جذري ، على الجحيم الرسمي الذي يتسع ، في مطلع القرن الثاني عشر ، لينشأ عنه فرع مؤقت ، هو المطهر .

I ـ جهنم الإسلام: الدينونة

يشتمل القرآن الكريم على رؤية لجهنم مصممة بوضوح ومتشابهة مع عناصر الميتولوجيا الشرق أوسطية والعقائد اليهودية والمسيحية . ففي حين أن العهد الجديد كان كثير الغموض حول هذا الموضوع الأمر الذي أثار نقاشات عديدة في العقيدة المسيحية ، جاء التعليم القرآني بسيطاً حسِّياً دقيقاً يشجع على إيمان إجماعي متين . لكن التعابير المجازية ، كانت فيما بعد مصدر حيرة ، عندما أصبح من الضروري أن يُعدّ علماء الدين تفسيراً مجازياً . وجاءت الصور الرمزية دائماً غامضة كما في سائر الأديان : وضعت لتوحي بأشياء يتعذر التعبير عنها ، وتصبح ستاراً للتفسير الحرفي . وحيثما يستخدم القرآن الكريم صوراً دقيقة يثير تفسيرها الرمزي من قبل المفتين

مشاكل في غاية الدقة ولا سيما عندما يضاف إليها سلسلة طويلة من الأحاديث والقصص الديني والتفاسير والكتابات المنحولة .

إن الخطوط العريضة للمصير الفردي ثابتة وواضحة : تَمْثُل نفسُ المتوفّى ، بعد الموت ، أمام الملاكين منكر ونكير فيسألانها عن معتقدها ، فإذا لم تستطع الإدلاء بالشهادة يعرِّضانها لمعاملة سيئة ويُريانها مقرها المستقبلي في جهنم ، ومكانها في قبر جدرانه الضيقة الخانقة حتى لتكاد تسحقها : إنه «عذاب القبر» . وفي نهاية العالم ، تقوم القيامة العامة عندما ينفخ إسرافيل في البوق ، فيحشر جميع الناس في ساحة فسيحة ؛ تهيمن عليها حرارة لا تطاق . وبعد انتظار قد يدوم أربعين عاماً يحاكم الله كل إنسان علناً بعد أن يطّلع على السجل الشخصي الذي دُوِّن فيه ما قام به الميت من أعمال في حياته ، ويلي ذلك امتحان الميزان : إذ توضع في إحدى الكفَّتين جميع السجلات التي دونت فيها الخطايا وفي الكفة الأخرى قصاصة من الورق كُتبت عليها الشهادة ، وهذه العملية تقرر النتيجة . يغمر المؤمن عندئذ بالنعم إلى حد يفوق الوصف . ويمكن للميت ، حتى ولو حكم عليه بالهلاك أن يأمل رحمة من عند الله ، هذا إذا كان من الفاسقين ، وهم فئة من الناس لم تحدد هويتها بدقة ، يضعها القرآن على قمة جبل بين الجنة وجهنم . وتتحدث بعض النصوص أيضاً عن جسر دقيق كالشعرة وحاد كالسيف ، هو جسر الصراط الذي لا يستطيع الأشرار ، وقد أمسكت الأبالسة بتلابيبهم ، أن يجتازوه .

II ـ جهنم الإسلام: العذاب

يحشر الهالكون إلى جهنم بواسطة الشياطين . فلهذا المكان ، الذي يسيطر عليه مالك ، بنية تقليدية معهودة يلعب فيها العدد سبعة (7) وأضعافه دوراً أساسياً : سبعة أبواب وسبعة طوابق تتضاعف فيها الحرارة سبعين مرة عند الإنتقال من طابق إلى طابق أسفل . يجرّ مجموع الهالكين 70.000 ملاك . وعند المدخل ينادي مالك سبعين مرة . لجهنم أسماء مختلفة أكثرها انتشاراً هي النار وسقر وجهنم (المشتقة من كلمة Ge - Hinnom) .

العذاب الأساسي هو النار وأعظم الخطايا تعاقب في الطبقات السفلى . ويضاعف

التقليد ، كما في المسيحية ، من العذاب : أطواق من النار ، دروع من القار الملتهب ، أخفاف من الحديد المتوهج ، نعوش من المعدن المحمّى حتى درجة الإبيضاض ، حمم متأججة تحت أخامص الأقدام تجعل النخاع في غليان ، تنانين ناريّة الأظافر ، أوقيانوس من لهيب مكتظ بالعقارب العملاقة التي للسعاتها ألم مبرّح يدوم عشر سنين .

لجهنم أبعاد هائلة : إذا ألقي فيها بحجر من الطابق الأول يستغرق هبوطه سبعين عاماً حتى يبلغ القعر . كل ما فيها لا حدود له في الزمان وفي المكان : تتمدد أجسام الهالكين حتى لتتسع لجميع أنواع العذاب . كل عمل يدوم عدة قرون في حين أن الوقت في الجنة يتقلص . ويستطيع سكان الجحيم أن يرقبوا سكان النعيم ويحسدوهم على سعادتهم . ولكن عذاب الجحيم لا ينوّه به أمام هؤلاء .

غير أن مسألة الزمن لم تحدد بدقة ، إن القرآن الكريم يحدد الأبدية بكلمة أحقاب التي تعني إذا استعملت بالمفرد ــ حقبة ــ مرحلة من سبعين سنة ، وإذا استعملت بالجمع ــ أحقاب ــ تكون بمعنى الأبدية . ومن ناحية أخرى ، لقد بعثت الآية 11 ، 107 ، من سورة هود ، بصيصاً من الأمل : «خالدين فيها (النار) ما دامت السماوات والأرض إلاَّ ما شاء ربُّك إنَّ ربَّك فعَّال لما يريد» .

إن المستقبل ليس محدوداً عكس ما جاء في الدين المسيحي . ولكل واحد ، طبعاً ، رأيه في النهاية ؛ فتؤكد مدرسة ابن صفوان أن جهنم ستزول ذات يوم ، ككل حقيقة مخلوقة ؛ وأن الله سيستعيد وحدته المطلقة ، بينما تميل مدارس أخرى إلى القول بخلود العذاب . . .

III ـ الهراطقة وجهنم

اصطدم الإيمان بجهنم ، لدى مسيحيي القرون الوسطى ، بمقاومة مستمرة في الأوساط الملحدة وخاصة عند المانويين وأتباعهم في أوروبا .

تفرَّع هذا التيار من العائلة الغنوصية[1] التي ليست مجرد فرع من المسيحية بل

(1) الغنوصية نزعة فلسفية دينية تهدف إلى إدراك كنه الأسرار الربانية .

نبتت أصولها على أطراف الفكر الإغريقي الفارسي والعبادات السرِّية في القرون المسيحية الأولى . يرتكز المفهوم الغنوصي على ازدواجية الروح ـ الجسد ، والخير ـ الشر ، يحكم الفئتين إلٰهان متعادلا القوى . لقد خلق إلٰه الخير العالم الروحاني وإلٰه الشر العالم المادي الذي تعيش فيه النفس أسيرة . من هنا فالجحيم هو الحياة الحاضرة ، وواقع النفس أن تكون سجينة في هذا العالم ، أن تكون مقيدة بجسد مع تطلعها إلى التقمص . ويتحد هذا المفهوم في النهاية بمفهوم لوكريس وبقلقه الوجودي . وهذا العالم هو مكان تحرك عبثي خاضع لشرائع طبيعية جائرة إذ إن كل لحظة من الزمن تدمِّر سابقتها في مسيرة حتمية نحو الموت .

يصف المانَويون ، المتفرعون في القرن الثالث ، من الحركة الغنوصية ، هذا العالم الجهنمي بأنه «عالم الظلمات ، تحكمه قوى شريرة تثير قلقاً جهنمياً . هكذا تتوصل إحدى ترانيمهم إلى إلٰه الروح» :

«أنقذني من أغوار هذا العدم
من الهاويات المظلمة حيث كل شيء فناء
لا شيء سوى العذاب ، سوى الجراح القاتلة
حيث لا مغيث يرجى ولا صديق !

أبداً وألف أبداً ، ليس فيه من خلاص
كل شيء غارق في الظلمات
السجون تملأ المكان ولا سبيل إلى الهرب
ويُضرب كل قادم إليها حتى يثخن بالجراح

مقفر بسبب الجفاف ، محروق بالهواء الحار
لا اخضرار فيه على الإطلاق ؛
من ينقذني منه ومن كل ما هو جارح
من ينجيني من القلق الجهنمي؟» .

إن الخلاص ، بالنسبة إلى الغنوصيين ، يكمن في التمرس بالمعرفة الحقيقية التي توحي لكل إنسان بطبيعته السامية . وكل عنصر مادي يسجن ، حسب تعاليم ماني ، إلى الأبد في كرة مع الأرواح التي لم تكن قد طُهِّرت . ويعتقد الإيبونيت[1] (Les ébi-onites) ، وهم جماعة تيار غنوصي آخر ، أن ليس مصير الأشرار سوى الفناء .

وكان للكاتار[2] (Les cathares) والألبيجيين[2] (Les albigeois) ورثة هذه الأوساط ، مفاهيم عن الجحيم غير واضحة . ومن نتائج التحقيق الواسع الذي أجراه ، في مستهل القرن الرابع عشر ، المحقق في محكمة التفتيش ، في مونتايّو ، جاك فورنييه ، أن الناس في القطاع الجنوبي الغربي من فرنسا يعتقدون بأن النفوس تتيه لحظة بعد الموت ثم تذهب إلى مقر الراحة . وفي نهاية العالم يخلص الجميع ، وجهنم هي للأبالسة فقط ، وليهوذا الإسخريوطي (يوضاس) ، ولليهود عند البعض . أما الجحيم ، بالنسبة إلى المؤمنين ، فهو سجن النفس في الجسد . وفي نهاية العالم يكون الخلاص شاملاً ، وسيحدث حريق شامل يسببه انصهار العناصر الأربعة ويتلاشى فيه الشر .

إن الكاتاريين الإيطاليين ، استناداً إلى كتاب مجهول المؤلف ، ينكرون كل وجود لجهنم التقليدية لسبب بسيط هو أن العالم هو خليقة لوسيفورس الذي لم يُعدّ مكاناً للعذاب له ولأتباعه . ويظهر من وقت إلى آخر مبشرون ودعاة يُستشفّ من تَعاليمهم وجود متشككين . ويقول جوليان الفازلياني (من Vèzelay) ، في القرن الثاني عشر ، إن بعض المسيحيين ينكرون وجود الجحيم . وهي ملاحظة يؤكدها الناسك الإنكليزي ريتشارد رولّ الذي عاش في القرن الرابع عشر . ويثير المطهر من الإنتقادات المتنوعة أكثر مما تثيره جهنم .

IV ـ ولادة المطهر

وضع جاك لوغوفّ في كتاب شهير أصول مفهوم المطهر الذي كان نطفة منذ عصر آباء الكنيسة . يبدو الإنقسام الثنائي جهنم ـ الجنة ، للبعض وكأنه ممعن في

(1) جماعة مسيحية وجدت خاصة في آسيا الصغرى ، في القرنين الثاني والثالث . ـ م ـ .
(2) جماعات مانوية كانت تسكن جنوبي غربي فرنسا . ـ م ـ .

البدائية والأصولية . فالكثيرون من المؤمنين ، وإن كانوا لا يستحقون جهنم ، لا يكونون عند موتهم في حالة تتيح لهم التمتع مباشرة بسعادة سكان الجنة التي تتطلب طهارة مطلقة . من هنا جاءت فكرة التطهير . فكرة «التطهير» من الخطايا العرضية بواسطة «نار مطهرة» تختلف عن نار جهنم مثل مطهر القديس پاتريك .

إن المطهر ، بالنسبة إلى البعض ، يقابل الطبقة العليا من جهنم التي نجدها تكراراً في المفاهيم الوثنية للعوالم الجهنمية ذات الطبقات . ويرى آخرون أن المطهر يتفق مع التعبير التوراتي «حضن إبراهيم» ، مكان الراحة والإنتظار هذا حيث كان يقيم الصالحون قبل مجيء المسيح . وهؤلاء هم الآن في الجنة ، وشغرت مراكزهم لتُشغَل من جديد .

وراحت الفكرة تفرض نفسها شيئاً فشيئاً ، وتتلقى دعماً قوياً مع تطور القانون ، الذي أشير إليه سابقاً ، مع ضرورة وجود معدلات نسبية بين الجريمة والعقاب ، وصعود الأوساط البورجوازية التجارية إبتداءً من القرن الحادي عشر : إذ أصبح الشبه يتنامى شيئاً فشيئاً بين سجل أعمالنا الصالحة والشريرة ودفاتر الحساب . وفي نهاية القرن الثاني عشر لخص راوول أردان النظام بشكل نهائي وحاسم :

«إن الذين هم في حالة الصلاح التام ينتقلون بعد الموت رأساً إلى مقر السعادة وليسوا بحاجة إلى صلواتنا ونذورنا ، بل نحن الذين نفيد من صلواتهم . . . والذين هم في حالة وسطى من الصلاح وهم متمسكون بالإقرار بالإيمان والتوبة الخالصة ، وبما أنهم ليسوا أطهاراً تماماً ، هؤلاء يطهرون في أماكن التطهير ، فالصدقات والقداديس مفيدة لهؤلاء دون شك . فليس باستحقاقات جديدة بعد الموت يجنون الفوائد ، بل نتيجة لاستحقاقاتهم السابقة ، وأما الذين أدينوا فلا يستحقون هذه النعم . ولكن نحن ، إخوتهم ، الذين نجهل من يحتاج إلى صلاة ومن لا يحتاج ، من تفيده هذه الصلاة ومن لا تفيده ، فيتوجب علينا تجاههم جميعاً ، ومن بينهم من لا يمكننا أن نتأكد من وضعهم ، أن نقدِّم الصلوات والنذور والقداديس . وتقدماتنا هذه تكون أعمال شكر للذين هم في غاية الطهارة ، وتكفيراً للذين هم في حالة وسط . أما بالنسبة إلى الهالكين فتكون نوعاً من التعزية للأحياء . وأخيراً ، فسواء أكانت هذه التقدمات مفيدة لمن تقدم من أجلهم أم لم تكن ، فهي على أي حال تفيد من يقدمها

بتفان وإيمان [. . .] . وإن من يصلي لغيره فكأنه يعمل لنفسه» (المؤلفات اللاتينية لآباء الكنيسة ، مجلد 155 ، مجموعة سنة 1485) .

وفي مطلع القرن الثالث عشر ، أعلن البابا إينوقنتيوس الثالث ، في إحدى عظاته بمناسبة عيد جميع القديسين رسمياً ، وجود مكان لتطهير الخطأة غير المحكوم عليهم بالعذاب الأبدي ، وفي سنة 1274 يُصْدِر مجمع ليون صياغته العقائدية .

جاء ظهور المطهر ليقوي سلطة الكنيسة إلى حد بعيد في موقفها التوسطي بين الله والناس عن طريق نظام الغفرانات . فمن الممكن أن نخفف عذاب المطهر بتلاوة الصلوات وإقامة القداديس التي تشترى لقاء تعريفة محددة بدقة . وسرعان ما غدا المطهر موضوع مساومة في سوق تجارية تدر الأرباح على رجال الدين . ويطبق هؤلاء التجار نصيحة القديس لوقا : «اكتسبوا الأصدقاء بالمال الحرام حتى إذا زال المال استقبلوكم في المنازل الأبدية» . (لوقا 16 ، 9) .

إن هذا الدعم لسلطة الكنيسة والإستغلال المالي لحقيقة روحانية ، هما من أسباب المعارضة الشرسة التي شنّها الهراطقة على المطهر . ونجد بوادر ذلك في أرّاس منذ القرن الحادي عشر . وفي سنة 1134 أُوقف تلميذ لپيار دوبروس ، يدعى هنري ، بسبب إنكاره وجود المطهر . وبعد ذلك بعدة سنوات ثار القديس برنار بشدة على هذه «الحيوانات الخبيثة» ، هؤلاء «الأميين الغلاظ» الذين يعترضون على المطهر . وفي نهاية القرن تصدى برنار دو فونكود للڤوديين[1](Les Vaudois) للأسباب ذاتها . ونصادف ، خلال القرن الرابع عشر ، في شمالي إيطاليا ، اعتراضات مشابهة ، وندرك الدور المحدد الذي لعبته قضية الغفرانات في قيام حركة الإصلاح الديني في القرن السادس عشر .

إن موضوع الجحيم وجميع فروعه كان أيضاً موضوع استغلال في مجالات أخرى .

---

(1) جماعة مسيحية ملحدة أسسها پيار جالدو في ليون في القرن الثاني عشر وتعرف باسم فقراء ليون ــ م ــ .

الفصل السابع

استثمارات جهنم
من العصر الوسيط حتى القرن السادس عشر

لقد كانت جهنم أكثر من الجنة مادة تستغلها مخيلة الإنسان . وبمقدار ما تتجلّى حيرة الفنانين وعلماء الأخلاق والمبشرين عندما تثار قضية السعادة الأبدية التي تتمتع بها النفوس البارة ، بمقدار ذلك يُسهبون في الكلام ويبدعون في وصف الآلام . وذلك أنه فيما يخص الجنة تعتبر كل لذة جسدية غير ملائمة وخارجة عن الموضوع ، الأمر الذي يحد من إمكانات الوصف إلى حد كبير . إن ملاذّ أهل الجنة تعطي انطباعاً بالسأم القاتل ؛ وبالرغم من الجهود التي يبذلها المبشرون تظل الرؤيا الطوباويّة تدفع إلى السأم إلى حدٍّ ما .

وميزة جهنم هي أن كل فيض من التخيلات مسموح به لأن كل العذابات المذكورة ليست إلاّ من نسج الخيال وهي دائماً مقصِّرة عن بلوغ الحقيقة ومعدَّة لتوحي بألم لا يمكن تصوره . هذا ما صرَّح به ڤنسان هودري في مطلع القرن الثامن عشر في كتيِّب يضم نصائح لتدبيج المواعظ يدعى «مكتبة المبشرين» ، قال : «ومع ذلك ، فليس من الضروري التحذير من أن المبالغة التي على الواعظ المسيحي تجنبها في كل الحالات ، لا داعي للتخوُّف منها في هذا المجال ، لأن الفكر الإنساني لا يمكنه إدراك جسامة عذابات الجحيم» .

للفنانين والكتّاب والمبشرين ملء الحرية في تمثيل أعنف مشهد ممكن لعذابات العالم الآخر هادفين إلى الإيحاء بخوف خلاصي من جهنم . إنقاذ النفوس بتخويفها من الدينونة : وبحجة هذا الهدف المحمود يشرِّع العمل الراعوي الترهيبي كل إسراف ومبالغة . بدءاً من تصريف الكبت السادي في الأدب الشعبي وصولاً إلى أزمات القلق لدى المتصوفة ، وقد حقق الخوف أيضاً بعض روائع الفكر الإنساني .

I ـ جحيم الفنانين

كان النحّاتون أول من مثّل للمؤمنين أهوال العالم الجهنمي في إطار الدينونة الأخيرة . والقرن الثاني عشر الذي شهد ترسيخ عناصر العقيدة الأساسية وتأليف أعظم الرؤى الرهبانية ، أبرز على الجبهات الغربية للكنائس مشاهد رائعة عن عملية فرز الناجين عن الهالكين . ويجرجر هؤلاء نحو فوهة جهنم الهائلة طغمة من الأبالسة والحيوانات الغريبة كما في بوليو وكونْكْ وكورباي وسان ـــ دنيس ولاوون وشارتر وباريس .

والمشهد الذي ظل متحفظاً في أغلب الحالات راح يتسع في القرن الثالث عشر حتى أصبحت العذابات محددة بدقة وفرادة . ويستسلم الفنانون ، في أوتان كما في ريمس ، إلى نزواتهم ويتحررون من التقاليد : فيظهر الميزان في اللوحات في حين يدوس الشيطان على كفة الشر ؛ ويسهل التعرف إلى الهالكين في خطاياهم كما يعرف البخلاء من الكيس المعلق في أعناقهم . وتمثل التصاوير في بروج الشياطين تؤجج النار والضفادع تلتصق بأثداء النساء .

ويصبح العالم الجهنمي طاغياً في العصر الوسيط . من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر ، إذ يبدو أحياناً يعم الأرض في أزمنة الكوارث والتقلبات التي تتميز بالحروب والطاعون والمجاعة والثورات وظاهرة عبادة الشيطان وحركات الرفض الاجتماعي والديني . وفي منمنمات المخطوطات تبلغ مشاهد التعذيب المتأثرة بالرؤى الرهبانية درجة عالية من الدقة الوثائقية ، وكانت أروع النصوص الإيرلندية مصدر وحي بجحيم مؤلّف «أغنى ساعات الدوق برّي» حوالي سنة 1420 ؛ بينما يعيد ڤيرار ، في الفصل المخصص لعذابات جهنم في كتاب «فن الحياة الصالحة والموت الصالح» سنة 1492 ، يعيد تأليف مشاهد رؤيا القديس بولس التي تلقى فيها الخطايا

الرئيسية عقاباً مناسباً : أفاعٍ وضفادع تلتهم أعضاء الفسَّاق التناسلية ، ويقتات الشرهون بأعضائهم هم ، ويذوق المتكبرون عذاب الدولاب ، رمز تقلب القدر ، ويُقَطَّع أصحاب الطباع الغاضبة إلى أجزاء تعود فتلتحم من جديد ، والبخلاء يغطسون في معدن ذائب ويشكهم مَمونُ[1] بالسفافيد ، والكسالى تزدردهم مسوخ مجنحة ثم تبصقهم . ويغطس الحاسدون مداورة في نهر جليدي وفي بحيرة من نار ويحسدون باستمرار من يخالفونهم في المصير .

هذه الرؤيا ، التي وسَّعت «روزنامةُ الرعاة» انتشارَها ، رُسمتْ من جديد حوالي سنة 1500 بمقاييس ضخمة وبنفحة مهلوسة مرعبة ضمن جدرانية كاتدرائية ألْبي العظيمة . وفي العصر ذاته أخذ النحت المتموج يلطف من هذه التصورات استناداً إلى مصادر الوحي ذاتها : يُربط الهالكون إلى الدولاب في كنيسة سان ــ ماكْلو في رْوان ، وهو مشهد نجده أيضاً حوالي سنة 1470 في كاتدرائية نانْتْ حيث الأبالسة تلصق أجسام الخطأة بعضها إلى بعض . وأحصي في مقاطعة بريتانيا (فرنسا) أكثر من خمسين مشهداً جهنمياً في كنائس ومصليات القرنين الخامس عشر والسادس عشر غالباً ما تعالج ببعض الحماسة كما في كِرْناسِكْلِيدِنْ (Kernaseléden) ما بين 1460 و 1464 .

وهذه المشاهد التي أصبحت ، بالرغم من كل شيء ، نماذج ثابتة في نهاية القرون الوسطى ، جددها وعدَّد لها فن النهضة الخالد . ففي إيطاليا وابتداءً من القرن الرابع عشر يستوحي أورْكاغنا (Orcagna) من رؤيا دانتي الرائعة التي يقتبس منها فيما بعد فْرَا أنجليكو وپاوْلو دي نيري وبوتيشلّي بعض عناصرها . ويتخذ مشهد الدينونة ، مع سيغنوريلّي وخاصة مع ميكال آنجَ ، أبعاداً أرضية مأساوية علاوة على استخدامه مجدداً بعض العناصر الميثولوجية مثل زورق كارون[2] .

---

(1) كلمة آرامية تعني ، في الآداب اليهودية ــ المسيحية ، إله الخيرات المادية أو الأموال الحرام التي تستعبد الناس . ــ م ــ .

(2) نوتي في الميتولوجيا اليونانية كان ينقل الموتى عبر نهر أكيرون أو أشيرون لقاء قطعة من النقود . ــ م ــ .

هذا المشهد هو أكثر وضوحاً أيضاً عند الفلمنكيين . فإذا كانت من نوع المنمنمات هذه التصاوير المبتكرة لصاحبيها فان آيْكْ أو مِمْلِنْغْ اللذين يبرزان تشابك هذه المجموعات من الأجسام الشاحبة والنحيلة الراسية في جبل النار أو غارقة في فوهة الأتون القائم بين ساقين منفرجتين لهيكل عظيم ضخم ، فإن لوحات جيروم بوش وآل بروغِلْ تشهد على نقل الجحيم إلى الأرض . فالقضية هنا ليست قضية دينية . إذ تصبح جهنم الوضعَ البشري بشكله المهلوَس في «جنة الملذات» لجيروم بوش وبشكل أكثر واقعية مع المناظر المشؤومة المأهولة بعجزة كريهي المنظر والمنتشرة فيها الحرائق ومشاهد المذابح عند آل بْروغِلْ الذين استحق أحدهم لقب بروغل «الجحيم» .

وما يبعث على الدهشة أن المشاهد الجهنمية تختفي من اللوحة الفنية ابتداءً من القرن السابع عشر ، إذ تعتبر لوحة الهالكين عند روبنز أحد آخر المشاهد من هذا النوع ، وذلك أن كنيسة الإصلاح الكاثوليكي أصرَّتْ على تنظيم هذا السيل من الرؤى ، فالحت على أن تكون الحقيقة الإيمانية من الآن فصاعداً ، هي المعيار الأساسي ، ومن المهم أن يوضع حدّ لفوضى هذه الأنواع : كإبعاد عناصر الميتولوجيا الوثنية وإعادة جهنم إلى نطاق العالم الثاني . إن مثال التنظيم والتأليف التقليديين والممثلين للنظام الإلٰهي الذي يجب أن يسود على الأرض ، لا يتوافق مع الرؤى الشيطانية الفاحشة التي نراها في القرن السادس عشر . وتتوارى صور الجحيم في الوقت الذي تزول فيه مظاهر الشعوذة وتأثيراتها .

II ـ جهنم، مادة أدبية

تعتبر جهنم الموضوع الرئيسي في أحد أكبر الأعمال الأدبية في القرون الوسطى ، ألا وهو الكوميديا الإلهية التي حُدِّد زمن تأليفها ما بين سنتي 1308 و1320 . والحقيقة أن الرؤيا الجهنمية لا تشكل سوى ثلث الكوميديا ولكنه الثلث الأهم الذي وسم بميسمه الثلثين الأخيرين في نظر الأجيال اللاحقة ، إذ اعتبرت «الرؤيا الدانتية» دائماً رؤيا جهنمية .

ويستعيد دانتي تقاليد السفر إلى الجحيم فيضفي عليه من عبقريته بعداً فريد المثال تتفجر طاقته من أنهار صورة الرعب والصرامة الفكرية المنطقية والرمزية الموحية مع التزمت العقائدي . يكمن الرعب في عالم دانتي في التوازن بين العناصر التي يتركب

منها وهي الصرامة المنطقية والرمزية والعقائدية التي تضفي على العذاب احتمالية شنيعة . وإلى جانب الرؤى الرهبانية المشوشة البلهاء إلى حدٍّ ما والقليلة الصدقية ، لدينا بناء فكري متماسك على صورة «المجموعة اللاهوتية» لتوما الأكويني التي تقتبس منها الكوميديا دقة التصنيف والتفريع والتزمت أيضاً . والمخيف في جحيم دانتي هو أن العذابات تتوافق مع الخطايا إلى مدى بعيد من الدقة يستحيل معها تفادي التساؤل برعدة عظيمة : ولماذا لا؟

يدخل دانتي أولاً ، محتذياً خطى ڤرجيل ، الخبير القديم ، رواق جهنم ، حيث توجد دهماء الجبناء المترددين الفاترين ، أولئك الذين لم يكن لديهم الجرأة أبداً على أن يختاروا معسكرهم : إنهم يدورون ، وراء راية ، حتى النهاية ، دون أن يسعوا إلى أي هدف ، تثيرهم لسعات الزنابير . ثم يدخل إلى الطبقة العليا خارج أسوار مدينة ديس (Dis) حيث يتحلق في حلقات خمس ، المستسلمون للنزوات الطائشة . في الحلقة الأولى التي تشكل اليمبس أولئك الذين لم يتقبلوا سر العماد ، إنهم لا يتعذبون بل يتوقون إلى السعادة دون أن يتمكنوا من بلوغها . وهناك ، عدا الأولاد ، كل مشاهير التاريخ الوثني القديم ، من هوميروس إلى إقليدس ومن أفلاطون إلى هوراس . ثم نشأ هذا بترتيب يراعي خطورة المعاصي ، حلقة الفجّار ثم الشرهاء ثم البخلاء ثم المنذرين ثم حلقة السيِّئي الطباع .

وعندئذ يعبر بحيرات الستيكْس (Styx) ليصل إلى جهنم الداخلية ، مدينة ديس ، حيث يسجن الخطأة «الفعليون» في حلقات أربع مقسمة إلى مناطق ثانوية . حلقة الهراطقة ، حلقة المعتدين بالعنف : المعتدين على القريب ، على أنفسهم (المنتحرين) ، على الله (المجدفين) ، على الطبيعة (اللواطيين) ، على الفن (المرابين) .

وبعد اجتياز الحاجز العظيم تأتي الحلقة الثامنة ، حلقة المدلسين ، الذين خدعوا أناساً لم يمحضوهم ثقتهم بشكل صريح ، وهم : الفاتنون ، الزناة ، السيمونيون ، المتاجرون بالأشياء الروحية ، العرّافون ، المتجرون بالمخدرات ، الخبثاء ، المستشارون الخونة ، زارعو الفوضى ، المزوِّرون . تقيم كل من هذه الفئات في حفرة دائرية .

ويصل في الحلقة التاسعة ، حلقة الخونة ، وراء منطقة العمالقة ، إلى من أساؤوا

إلـى أشـخاص وثقـوا بهـم ؛ من خانـوا ذويهم (جـماعـة قايين) وطنهم (جـماعـة أنطينور)[1] ، ضيوفهم (جماعة بطليموس) ، المحسنين إليهم (جماعة يوضاس) .

وأخيراً ، يتشكل قلب الجحيم ، في مركز الأرض ، من لوسيفورس بالذات ، المارد الذي يقطّع ، إلى ما لا نهاية يهوذا الأسخـريوطي (يوضـاس) الخائن والمحكوم عليه بالعذاب المقيم . يشبه الجحيم قمعاً ضخماً يشغل نصف الكرة الأرضية بكامله ، رأسه متجه نحو سُرَّة لوسيفورس . والبنية المؤلفة من دوائر تزداد عـمقاً تساوي خطايا تزداد خطورة وتجذراً في النفس ، هي نفسها رمزية .

لقـد صنع الخاسـرون مصـيرهـم الذي اختـاروه هم والذين ينسجم مع طبيعـة أعمالهم . وهذا ما يجعل منها احتمالية شنيعة . وهكذا فالغـاضبون الساخطون الذين ينهش بعضهم بعضاً هم الذين تنكروا للشفقة في حياتهم : لا سبيل الآن إلى الرثاء لهم ؛ واللصـوص الذين انتزعـوا من الآخرين خيراتهم تنتزع منهم الآن شـخصيتـهم فيلبسون حالات مختلفة على الدوام ، ولم يعودوا سوى ظلال تنهشها الأفاعي .

لا وجود للنار سوى في الحلقـة الأخيرة ، ولكن الوضع في الحلقة الأخـيرة هو الأسوأ . حيث يغمر الخونة جليد نهر كوسيت[2] المتجمد ولا يظهر منهم إلاّ رؤوسهم البنفسجية اللون التي ترى بنواظر قبيحة . إنها كـائنات مشلولة يسمِّرها في مكانها صمت الموت الأبدي كما شلت الخطيئة قلبهـا . وعندما يطرح عليها دانتي السؤال يمنعها البرد من التلفظ بأي جواب وتجمد دموعها في أعينها .

وهناك العديد من الشخصيات التـاريخية ، من بينها عـدة بابوات ، مثل سيلستين الخامس بين الجبناء ونقولا الثالث بين المتاجرين بالأشياء الروحية . . .

«لم يثقب برميل تراخى طوقه أو فقد أحـد أضلاعه ، كـما ثقب هالك رأيته ، لقد شـق مـن ذقـنـه حـتـى مؤخـرتـه، وتـدلـت أمـعـاؤه بـين فـخـذيـه، وانـدلـقـت رئـتـاه والكيس الذي يحـول الطعام برازاً . وفيما كنت مـأخوذاً بكلّيتي لأراه ، رفع نظره إليّ

---

(1) Antenor : نحات يوناني في نهاية القرن الرابع ق .م . ـ م ـ .

(2) Cocyte هو نهر في الجحيم تفيض مياهه من دموع الأشرار . ـ م ـ .

وفتح صدره بيده» وقال: «انظر إلي كيف أتمزق، أنظر كيف أقطِّع». وكان آخرُ يسير أمامي مجهشاً بالبكاء، وجهه مشقوق حتى ناصيته. وكل من تراه هنا كان في حياته زارعاً للشكوك مثيراً للفتن والإنشقاقات. ولهذا هم مشقوقون الآن هنا. ووراءنا شيطان ينظم صفوفنا بقساوة بالغة ويقطع كل واحد من رعيلنا بحد سيفه عندما نكون قد أنهينا دورة طريق الآلام، لأن جراحنا تندمل قبل أن نمثل أمامه ثانية» (XXVIII, 22, 42).

وانطلاقاً من القرن الخامس عشر، بدأ موضوع الجحيم يعالج بأسلوب غامض. وفي سنة 1420، صُوِّرتْ «جنة الملكة سيبيل»[1] كمكان مشبوه يتم فيه التمتع بالملذات المحرمة، ملذات الجسد، إلى الأبد ودون إحساس بالألم. وتختلط الجنة بالجحيم في حقيقة مشوشة ذات نبرات حديثة. ويحاول ڤيُّون (Villon) أن يسخر من الإقامة في جحيم الأبرار كما ورد في العهد القديم فيقول: «إن البعض، كما أتصور، لفحتهم حرارة عظيمة في أقفائهم». لكن صاحب هذه الموشحة (Ballade) الذي حكم عليه بالإعدام، مع وقف التنفيذ، لم يتوغل في الموضوع أكثر من ذلك. بل يتوسل إلى المسيح قائلاً: «نجني يا سيدي من نار جهنم».

وفي بداية القرن التالي، ينزل جان لومير البلجيكي إلى الجحيم هو أيضاً في «رسائل الحبيب الأخضر» ولكن جحيمه هو الجحيم اليوناني ـ الروماني. ويرسم رابليه، من جهته، صورة ساخرة لهذه الأسفار إلى العالم الآخر في الفصل الثلاثين من كتابه پانتا غرويل. يروي إپستمون الذي قام من الموت بفضل مسحوق ديامرْديس[2] من صديقه پانورج، أنه رأى الحياة تدب في جهنم حيث الشياطين «الرفَاق الطيبون، يعملون بإمرة لوسيفورس المتسامح. كلٌّ يعيش حياة هادئة وادعة ويقوم بدور مناقض لدوره في الحياة: يعيش ديوجين حياة البذخ ويقوم الإسكندر بخدمته، إپيكتيت يلهو مع الغواني، ڤورش يتسكع في الشوارع متسولاً، ڤيُّون

---

(1) Sibylle: تجسد إلهي (في الميتولوجيات القديمة) واسم أعطي لبعض النبيات بسبب الشهرة العظيمة التي اكتسبتها كاهنة أپولون وعرّافة دعيت سيبيل. وسيبيل أيضاً اسم ملكة أورشليم (1186 - 1190). ـ م ـ.

(2) قد تكون لفظة من وضع المؤلف ـ م ـ.

يتسوّق ويُبول في سطل أحشورش الذي يبيع الخردل بثمن باهظ ؛ قيصر وپومپيوس يقومان بطلْي السفن بالقطران ؛ وكليوباطرة تبيع البصل . إنها وقاحة وسخرية لا شك . ولكنها توحي بمناخ جديد : لقد بدأ «الإلحاد يكشِّر عن أنيابه متستراً بطيبة القلب» . كما لاحظ فرنسيس رابْ .

وفي العصر ذاته ينكر إيراسْمْ كل حقيقة لعذاب جهنم . ويكتب : «إن جهنم تكمن في القلق الدائم الذي يصحب اعتياد الخطيئة ، الأمر الذي أثار حفيظة جامعة السوربون بشكل عنيف ففرضت سنة 1526 على الإنسي (humaniste) أن يؤكد إيمانه بالنار الخالدة . ومع ذلك فالفكرة تابعت طريقها إذ عاد إلى تبنيها سنة 1542 الدومينيكاني أمبرواز كاتاران ، بينما يصرح جان بودان في نهاية القرن في «حوار الأسرار الخفية» ؛ «أنه إذا كان حلم الله أعظم فإن قسوته لن تدوم إلى الأبد» .

لم يكن ما ذكرناه سوى خواطر لمفكرين استثنائيين . ومع ذلك فقد لاحظ الوُعَّاظ أن الخوف من الجحيم لم يعد كما كان في السابق .

III ـ جهنم في خدمة راعوية[1] الترهيب

وظل أتباع الكنيسة الكاثوليكية إلى أمد بعيد ميالين إلى اعتبار جهنم مُعدَّة للوثنيين والملحدين والهراطقة . وشيئاً فشيئاً وبتأثير خاص من مواعظ الرهبان تزعزع الإيمان بخلاص جميع المسيحيين وحل مكانه قلق أصم ظهرت بوادره الأولى في القرن السابع في الليتورجيا الڤيزيقوطية ، يحتوي أحد كتب القداديس من القرن الثامن الذي يحمل عنوان «كتاب قداديس بوبيو» على صلاة عن نفس الموتى «لكي ينجوا من مكان العذاب ، من نار جهنم ، من نيران الترتار ، وكي يصلوا إلى مقر الأحياء» .

ويلاحظ القلق أيضاً في عادة دفن الموتى في أقرب مكان ممكن من المذبح أو المحراب حيث توجد بقايا شهيد أو قديس يُبعد وجودهما قوى الشر التي تحاول حمل الميت إلى جهنم . وتشهد بعض الكتابات الجنائزية الفرنجية على هذه المخاوف .

(1) Pastorale راعوية ، والمقصودة : الخدمات التي يؤديها الكاهن لكنيسته ولأبناء رعيته ومنها المواعظ والإرشادات ـ م ـ .

ويتسنّى لنا أن نقرأ ما كتب، في ڤيينّا، على ناووس يعود تاريخه إلى سنة 515 وهو التالي: «إن من يرقد رفاته في هذا القبر استحق أن يشترك في مدفن القديسين، فليُبعدْ عنه غضب الترتار ولتجزْ عنه قساوة العذاب».

وإذ استخدم سيزيردارْك بكثرة راعوية الترهيب حتى أصبحت مرة أخرى منهجية في القرن الثاني عشر في الأوساط الرهبانية التي تبث فكرة النخبة الناجية بسبب حياة التقشف والزهد والغالبية العظمى الهالكة. تتفق كتابات الأضرحة والرسوم الجدرانية والمواعظ على ترغيب المؤمن. وبما أنه ليس من عامل للتخويف أفضل من الإنسان الخائف، لذا يتحدث الوعّاظ عن حالات خوفهم الخاصة، ويصرِّح جوليان دو ڤازلاي سنة 1150 قائلاً: «ثلاثة أمور ترعبني، ولدى ذكرها يرتعد كل كياني الداخلي، هذه الأمور هي: الموت والجحيم والدينونة الآتية». وفي الحقبة ذاتها يكتب غيُّوم دو سان تيبرّي في «مواعظه التأملية» أنه عندما تمنى أن يزور الجحيم حمل أحد الملائكة روحه، وعندما وصل إلى الباب تملكه خوف عظيم بسبب البكاء وصريف الأسنان حتى إنه صرف النظر عن الدخول.

وقد عبر القديس برنار عن خوفه، مرات كثيرة، في مواعظه قائلاً: «أخاف جهنم، أخشى وجه الديَّان الذي تخافه طغمات الملائكة أيضاً. أرتجف لدى التفكير بغضب الكلي القدرة، بالسخط المرتسم على وجهه، بصخب العالم المتداعي، باحتراق العناصر، بالعاصفة الرهيبة، بصوت رئيس الملائكة وبكلامه الرهيب. أرتعد عندما تمر في بالي أنياب الحيوان الجهنمي وهاوية الجحيم والأسود التي تزأر وهي تنقض على فريستها. إني استفظع الدودة القارضة والنار المفترسة والدخان والبخار والكبريت وعزيف العواصف، أرهب لذكر الظلمات الخارجية» (من عظة حول نشيد الأناشيد). «المنطقة الرابعة هي منطقة جهنم، يا لمنطقة الشدة والعذاب، منطقة الأهوال. منطقة يتوجب الهرب منها، أرض النسيان، أرض البلايا والشقاء حيث وحدها الفوضى تهيمن، حيث لا يستوطن سوى الرعب السرمدي! مكان يُنْبت الموت الزؤام وليس فيه سوى نار حامية وبرد يخرق العظام، ووخز ضمير لا ينتهي ورائحة كريهة تعافها النفس ومطارق تقرع، وظلمات بعضها فوق بعض وخليط فوضوي من الخطأة وعتاد من السلاسل ورؤوس أبالسة تلقي الذعر في القلوب». (موعظة حول التجارات الخمس والمناطق الخمس).

وفي القرن الخامس عشر راح الواعظ الشعبي جاك دون ڤيتري يكثر من الأمثلة ، وهي عبارة عن أقاصيص دينية صغيرة تبث الذعر وتقرع ناقوس الخطر . ويخصص الراهب الدومينيكاني إتيان دو بوربون قسماً من مؤلفه «مقالة في الوعظ» لـ «نعمة الخوف» . ويتميز القرنان الرابع عشر والخامس عشر بفيض من الكلام . وإذ يتحدث الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان ، أمام الجماهير المرهقة الأعصاب ، المخدرة ، المنهوكة بسبب كوارث العصر ، يلحون على الناحية المخيفة في العالم الآخر . ويندد الراهب الدومينيكاني الإسباني ، ڤنسان فيرْيِيْه ، الملقب بـ «ملاك رؤيا يوحنا» ، بالخطأة مهدِّداً متوعِّداً : «إذا فكرّت بعذابات الهالكين في جهنم المعدة لكل الخاطئين ، أظن أن كل توبة ، كل تواضع ، كل فقر ، أخيراً كل صراع يمكنك أن تتحمله في هذه الحياة في سبيل الله يكون سهلاً إذا أنقذك من العذاب العظيم» . ويزايد عليه زميله تولرْ قائلاً : «فكِّر أن الألوف المؤلفة من الناس هم في جهنم ، وهم ربما لم يقترفوا ما اقترفتَ من الشرور» . ويقرن الأخوة المتسولون العمل بالكلام فيتكوَّون من الألم ويصرخون ، بعَضٌ بَعْضهم أذرع بعض ليبرهنوا كيف يفترس الهالكون بعضهم بعضاً ، ويعتقدَ بعضهم ، مثل «غريب» أوكْسيرْ ، أنهم يبالغون ويجعلون من الله جزَّاراً حقيقياً .

إن الإفراط في استخدام التهديد يقلل من فعاليته : ويذكر هرڤيه مارتان ، مؤلف أطروحة قيِّمة حول الوعظ في نهاية العصر الوسيط ، ملاحظات قيمة للكثيرين من رجال الدين الذين استنتجوا لا جدوى عظاتهم . يتأثر المستمعون آنياً ، ولكن المشاغل اليومية تستعيد حقوقها بسرعة . أو يشعرون بأنهم غير معنيين ، ويعتبرون الكلام موجهاً إلى غيرهم . ومن الخواطر في سجل رجال الدين بهذا الخصوص : «آه ! كم أجاد الكلام ضد فلان !» «آواه ! ما أبرع الواعظ في التحدث عن السادة الإقطاعيين وعن السيِّدات !» . ومع ذلك لقد راح العصر الكلاسيكي ، في إطار الإصلاح الكاثوليكي ، يبعث الحماسة في مواعظ الترهيب بأساليب أكثر اعتدالاً .

IV ـ جهنم المتصوّفة

يشغل الصوفيون ، بين الذين يألفون جهنم ، مكاناً خاصاً . إن حساسيتهم المفرطة وحدّة تجربتهم الداخلية تولدان ، حول موضوع على هذا القدر من الرعب ، نتائج

نفسية مؤذية يصعب التعبير عنها بالكلام . وهكذا يكثر هنريش سوزو (1293 - 1366) من الصور ليوحي بخلود العذاب ويتأمل هذا العذاب ليستخلص منه تشجيعاً على تحمل إماتات الجسد وحياة التقشف . وفي القرن الرابع عشر تستبد بالناسك الإنكليزي ريتشارد رول فكرة الخوف من جهنم إلى درجة أنه راح يجترها هاذياً ، وأسكن في جهنم كل الذين يقترفون خطيئة الجسد . وإذ كان ضحية ممارسة جنسية لم يستطع تحمل وزرها فأساء كبتها وقرن ما بين خطيئة الجسد وجهنم قائلاً : «أيها المراهق ، كان لي قلب ملتهب [. . .] . رأيت أن حياة الناس خسيسة [. . .] . قضيت عمري في التوبة وهكذا بإمكاني أن أموت غير خائف من جهنم . لقد تحاشيت النساء كي لا أستسلم لإغراءاتهن» .

وكان كتاب «التقوى المعاصرة» الذي يعود تاريخه إلى القرن الخامس عشر ، أكثر اعتدالاً ؛ وقد بلغت التقوى ذروتها في كتاب «الإقتداء بالمسيح» الذي يستخدم جهنم كوسيلة تعزية تساعد على تحمل عذابات هذا العالم وتساعدنا في صراعنا مع الخطيئة . وإذ يحدد لكل معصية عقابها المناسب يدعونا إلى التأمل فيها لتكون معواناً لنا في حياتنا التقوية .

وإلى هذا المبدأ بالذات ، يلجأ ، في القرن السادس عشر ، أغناطيوس دو لويولا الذي يخصص القسم الخامس من كتابه «رياضات روحية» للتأمل المنهجي في الجحيم مستخدماً الحواس والعقل على حد سواء : «صلاة ، الصلاة التمهيدية العادية» .

مقدمة أولى : شكل المكان . نرى بعين المخيلة طول جهنم وعرضها وعمقها .

مقدمة ثانية : التمس ما أريد ، أتساءل عن الشعور الداخلي بالألم الذي يعتري الهالكين . حتى إذا حدث لي أن نسيت ، بسبب خطاياي ، محبة سيِّدي السرمدي ، فعلى الأقل يساعدني الخوف من العذاب على عدم السقوط في الخطيئة .

النقطة الأولى ، أرى بعين المخيلة النيران الهائلة والنفوس كما في أجسام تحترق .

النقطة الثانية ، أسمع بأذني الشكوى ، الصراخ ، البكاء الشتائم الموجهة إلى السيِّد المسيح وإلى جميع القديسين .

النقطة الثالثة ، بأنفي أشتمّ رائحة الدخان والكبريت والأقذار والنتانة .
النقطة الرابعة . أتذوق ، بحاسة الذوق لديّ ، الأشياء المرة كالدموع والحزن ودود الضمير .
النقطة الخامسة . أدرك ، بحاسّة اللمس ، كيف تلامس النار النفوس وتحرقها .

الحوار . أجري حواراً مع سيدنا يسوع المسيح . أتذكر النفوس الهالكة في جهنم : بعضها لأنه لم يؤمن بمجيئه ، وآخر آمن ولكنه لم يعمل بوصاياه . أجعلها ثلاث فئات : الأولى من ماتوا قبل مجيئه ، الثانية من قضوا أثناء وجوده على الأرض والثالثة بعد صعوده إلى السماء . ثم أشكره على نعمه لأنه لم يسمح بأن أكون في أية فئة من هذه الفئات الثلاث واضعاً حداً لحياتي ، ولأنه حتى الآن كان يخصني بالحنان والرحمة . أنهي الحوار بتلاوة الصلاة الربية .

وفي مناهج الحياة المسيحية يوحِّد المستشارون الروحيون ما بين الخوف من جهنم ونظام دفاعي جيد الإعداد ضد الخطيئة . إن هذا الشعور ، بالنسبة إلى فرانسوا دو سال ، هو الحاجز الأخير ضد قوى الشر ، وهو الأكثر بدائية ، ولكنه الأكثر فعالية . . . يجب على النفس التي تقدمت أشواطاً في المدارج الروحية أن تلجأ إلى وسائل أكثر رقياً ؛ ولكن إذا أصبحت هجمات الشيطان أقوى أو إذا كان الإنسان جديداً في الحياة الروحية ، يتحتم عليه أن يركز عقله على أهوال جهنم . وهذا ما ينصح به سنة 1609 في «مدخل إلى حياة التقوى» متَّبعاً طريقة لها من المنهجية ما لطريقة القديس إغناطيوس :

إعداد

1) ضع نفسك في حضرة العزة الإلهية .
2) تواضع واطلب مساعدتها .
3) تصور مدينة مظلمة تحترق بالكبريت والقطران النتن ، مزدحمة بسكّان لا يستطيعون الخروج منها .

اعتبارات

1) حال الهالكين داخل الهاوية الجهنمية كحال سكان هذه المدينة المنكودة الذين

تعاني حواسهم جميعاً وأعضاؤهم كلها عذابات لا توصف لأنهم استخدموا جميع أعضائهم وحواسهم في ارتكاب الخطيئة ، وهكذا ستنزل بجميع أعضائهم وحواسهم العذابات التي تسببها الخطيئة : تتألم عيونهم ، لنظراتها الخاطئة والشريرة برؤية منظر الشياطين الكريه ؛ وآذانهم التي تمتعت بأحاديث الرذيلة لن تسمع سوى البكاء والنحيب وتأوهات اليأس . وهكذا سائر الحواس .

2) وثمة عذاب أعظم من هذه العذابات جميعاً . ألا وهو الحرمان من مجد الله وخسرانه . لقد منعوا من رؤيته إلى الأبد . لئن وجد أبشالوم أن حرمانه من رؤية وجه أبيه المحبوب داود كان أقسى عليه من المنفى . فما أشد خسارتنا يا الله أن نحرم من رؤية وجهك اللطيف العذب إلى الأبد !

3) تأملوا خاصة ، خلود هذا العذاب الذي وحده يجعل جهنم لا تطاق . واحسرتاه ! إن برغوثاً في أذننا أو حرارة بسيطة تجعل ليلنا القصير طويلاً مزعجاً ، فكم سيكون مرعباً ليل الأبدية الطويل مع كثير من العذابات ! ومن هذه الأبدية ينشأ اليأس ، اليأس المقيم والشتائم والأحقاد التي لا نهاية لها .

انفعالات وقرارات

1) روعوا نفوسكم بكلمات إشعيا :

ـــ يا نفسي ! أيمكنك أن تعايشي إلى الأبد هذا السعير الدائم وتتحملي هذه النار الآكلة؟ أتريدين أن تتخلي عن إلٰهك إلى الأبد؟

2) اعترفوا بأنكم استحققتم ذلك ، ولكن كم مرة؟ أريد من الآن فصاعداً ، أريد أن أسير في طريق مغايرة ، فلماذا أسقط في هذه الوهدة؟

3) سأقوم بهذا الجهد أو بذاك للابتعاد عن الخطيئة التي وحدها تسبب هذا الموت الأبدي .

«أشكروا ربكم ، قدموا الذبائح ، صلّوا» .

كانت تريز دافيلا ، آخر رائية للجحيم ، هذه المرأة الخارقة الحساسية ، المشبوبة العاطفة التي لا تزال شخصيتها إلى اليوم تحير المؤرخين وتضللهم ، كانت قد عانت

سنة 1560 الجحيم تجربة داخلية وقالت : إن الله أراها المصير الذي تستحقه خطاياها لو لم ينقذها منها . إن رؤياها هي إحدى قمم الآداب الجهنمية التي تثير على إيجازها الرعب المطلق . ليست جهنم هنا مشهداً ، إنها حقيقة نفسية حية في داخل النفس تعجز لغة الإنسان عن التعبير عن حدتها التي لا تحتمل . تغص الأنا في لحظة خالدة ، في انتظار اختناق كامل لا يأتي أبداً :

لقد بدا لي مدخل جهنم كأحد هذه الشوارع الطويلة الضيقة المقفلة من أحد طرفَيها ، وكمثل فوهة أتون منخفض جداً وضيق جداً ومظلم جداً . وتراءت لي أرضها وكأنها من وحول قذرة ، رائحتها لا تحتمل تزخر بالأفاعي السامة ؛ وفي نهاية هذا الشارع الصغير فجوة منقورة في حائط على شكل مشكاة رأيت فيها نفسي أسيرة يُضيّق عليّ . وبالرغم من أن ما قلته هو أفظع بكثير مما أتمثّله . لكنه يظل لطيفاً عذباً بالقياس إلى ما قاسيته في هذا النوع من المشكاة .

كان هذا العذاب مخيفاً جداً إلى درجة أن ما يمكن أن نقوله عنه لا يمثل سوى أقل أجزائه . شعرت بأن نفسي تحترق بنار هائلة يستحيل عليّ أن أصفها كما رأيتها . لأني لا أستطيع إدراكها . لقد كابدت ، بشهادة الأطباء ، أقسى آلام يمكن لإنسان أن يكابدها في هذه الحياة ، آلام ناتجة عن تشنج الأعصاب وعن أوجاع أخرى سبّبها لي الأبالسة . لكن كل هذه الأوجاع لم تكن شيئاً إذا قوبلت بما عانيته حينذاك ، هذا عدا الرعب لرؤيتي أن العذاب كان مقيماً . وكل هذا قليل بجانب الضيق الذي توجد فيه النفس . يتراءى لها أن أنفاسها تُضيّق عليها ، أنها تختنق ، ويبلغ أساها ويأسها حداً حاولتُ عبثاً أن أصفه . وقليل القول إنها تعاني ألم التمزق دون انقطاع لأن ما يسحقها هو عنف غريب من شأنه أن ينتزع منها الحياة ، بدلاً من أن تنتزعها هي بنفسها وتتمزق . أما هذه النار وهذا اليأس اللذان أترَعا كأس العذاب الرهيب فأعترف أني قصرت في وصفهما على حقيقتهما . لم أكن على علم بمن سبب لي مكابدتهما ، لكني كنت أشعر بأني أحترق ، بأني أقطّع إلى آلاف القطع ، وكان هذا يبدو لي أقسى ما عانيته من عذاب أليم .

«ففي مكان مخيف إلى هذا الحد ، لم يعد لي من أمل في الحصول على تعزية ما ، ولم يبق من مكان يكفي للجلوس أو النوم . كنت كثقب نُقِر في جدار ، وهذه

الجدران المرعبة كانت ، خلافاً للنظام الطبيعي ، تطوّق وتهصر من تحاصره . كل ما في هذا المكان خانق ، إنها ظلمات كثيفة بعضها فوق بعض لا يخالطها أي بصيص من نور ؛ ولست أفهم كيف يمكن أن يحدث أنه بالرغم من فقدان أي ضوء ، يمكننا أن نرى ما تقع عليه الأبصار» .

الفصل الثامن

جهنم القرون السابع عشر إلى التاسع عشر
بين مد وجزر

كان الإصلاح التريدنتيني[1] ، الذي دخل حيِّز التنفيذ في الثلث الأول من القرن السابع عشر ، ثورة ثقافية حقيقية اكسبت الكنيسة وجْهاً جديداً حاسماً إلى حد ما وذلك إلى حين عصفت الخلافات من جديد على نطاق واسع في القرن التاسع عشر . وكان هذا الإصلاح إعادة نظر في الثقافة الغربية برمتها بعد فوضى العصر الوسيط والنهضة . فأعيد تحديد المعتقدات بدقة فجمدت ، وترسخ النظام الكنسي في توليف شامل مستجيباً لضرورات المرحلة الواقعة ما بين 1600 و1650 . كان العمل عظيماً ولكن نقطة ضعفه الأساسية هي أنه حرَّم على نفسه كل تغيير في المستقبل . وحدث منذ نهاية القرن السابع عشر تباعد في التفكير راح يتزايد مع التحول الثقافي الباعث على رفض المعتقدات التقليدية .

وكان لمفهوم الجحيم صورة كاملة عن هذا التباعد ، وتكامل الإيمان بالجحيم ، الذي نَظّم بعناية وبروح تقليدية فوضى التجاوزات التي حدثت في القرن الرابع عشر وامتدت إلى السادس عشر ، تكامل العقيدة الشاملة بالتناغم مع حضارة القرن العظيم (القرن السابع عشر في فرنسا) في إطار وجهة نظر نخبوية محدودة تحتفظ

(1) نسبة إلى المجموع المسكوني التاسع عشر المعروف بالتريدنتيني (1545 - 1563) ، عقد في مدينة ترانتو الإيطالية واهتم بتنظيم الكنيسة الكاثوليكية وتجديد معتقدها بعد الإصلاح البروتستانتي . ـ م ـ .

بالسماء لعدد قليل من المختارين . وازداد التزمت عنيفاً في القرن التاسع عشر ، عصر المعارك الذي تصلبت خلاله المواقف . غير أنه منذ السنوات 1680 – 1720 أثناء «أزمة الضمير الأوروبي» عادت فكرة الجحيم موضع شك ونقاش وخاصة بمبدئها الأساسي أي الخلود . ويرهن فلاسفة القرن الثامن عشر والمسيحيون المتحررون (الليبراليون) في القرن التاسع عشر التضاد القائم بين محبة الله والعذاب اللانهائي . فيما راحت الكنيسة تتصلب في موقفها . وشيئاً فشيئاً تراجع الخوف في أذهان المؤمنين وتحوّلت جهنم العالم الآخر إيماناً متحجّراً أخلى مكانه في القرن العشرين إلى جهنم أرضية وبشرية بحتة .

I ـ جهنم التقليدية

دُمجَتْ جهنَّمُ في صلب عملية إعادة التنظيم الإيماني والراعوي للإصلاح الكاثوليكي كجهاز أساسي في مخطط الخلاص . وكان دورها راعوياً وأخروياً في الوقت نفسه . وبعث هذا الدورُ الخوف الخلاصي في نفوس المسيحيين لإبعادهم عن الخطيئة وتقديم حلٍّ نهائي لعامة الملحدين والجاحدين والوثنيين والمتمردين الذين يرفضون الصفح الإلهي .

والتعاليم المسيحية التي تكاثرت ترسِّخ الإيمان بشكل واضح في أذهان المؤمنين بصيغ دقيقة وحاسمة . وتخصص تعاليم بورج مثلاً في طبعة 1736 أكثر من عشر صفحات للدينونة ولجهنم . وهذا هو المقطع الأساسي منها :

س . ـ ما هي جهنم؟

ج . ـ إنها المكان الذي يُرْسَل إليه من يموت في حال الخطيئة المميتة .

س . ـ كم يلزم من الخطايا للسقوط فيها؟

ج . ـ خطيئة واحدة لم يندم عليها مرتكبها ندامة حقيقية تكفي ليخسر نفسه إلى الأبد .

س . ـ كم يكابد الخاطىء من عذاب في جهنم؟

ج . ـ يلخص عذابه بعذاب الحواس ، بعذاب جهنم وبعذاب الأبدية .

س . ـ ما الذي يجب ملاحظته ، استناداً إلى الكتاب المقدس ، بخصوص هذا العذاب؟

ج . ـــ 1) المكان ، الذي هو سجن رهيب ، هو زنزانة مرعبة محفورة في قلب الأرض . 2) السلاسل التي تكبل أرجل الهالكين وأيديهم وتنتزع منهم كل أمل بالهرب والدفاع عن النفس . 3) الجماعة ، جماعة الهالكين وهي عبارة عن جميع الخطأة على هذه الأرض وكل اللصوص وشر من وجد من الناس وأكرههم ، زنادقة ، مجدِّفون ، قتلة ، سحرة إلخ . . . المتباغضون ، المتلاعنون ، المتحاقدون . 4) سيد هذا المكان البائس هو لوسيفورس وزبانيته ، أي هذه الأرواح الساخطة الشريرة ، المسعورة ، القبيحة المنظر ، الكريهة ، الماكرة ، الطاغية التي تُعبِّىء حقداً مريراً قاتلاً على الجنس البشري . 5) تألم جميع الحواس وجميع القوى : هناك تغشى العيون ظلمات كثيفة لا ترى فيها نوراً على الإطلاق : هناك الدموع والنحيب وصريف الأسنان والبكاء والعويل والحسرات والشهيق والزفير : هناك نتن لا يطاق تنفثه هذه التيوس الجهنمية في بؤرة هذا العالم ، في هذا المرحاض الكوني تزاد عليه رائحة الكبريت المنبعثة من الجحيم ؛ هناك تُبتَلى الآذان بالصياح ، بالتذمر ، باللعنات ، بالشتائم ، بالتجاديف ، هناك جوع مسعور وظمأ لاهب يقضان مضاجع هؤلاء المساكين ، ودودهم يقرض قلوبهم باستمرار . ولكن ماذا نقول في هذا المستنقع الملتهب بالنار والكبريت الذي يغوص فيه المدانون ويحترقون إلى الأبد؟ كان ذاك نموذجاً من جهنم» .

ويفصِّل التعليم المسيحي بعد ذلك ، طبيعة عذابات الجحيم والحواس الأبدية وطبيعة الخطايا التي تسبب هذه الدينونة المشؤومة . والمجموع واضح منطقي ، ديكارتي ، وبكلمة ، كلاسيكي . جهنم هي ضرورة ، إلى حد ما ، رياضية : ألم يضع بوسُّويه سنة 1687 برهاناً رياضياً ونتائج طبيعة مبيِّناً أن «الله لا يستطيع أن يتحاشى معاقبة الخطيئة ، عقاباً أبدياً ، أو على الأقل ، تبعاً لما يستطيع المجرم أن يتحمل من عذاب»؟

ويتخذ الوعَّاظ من جهنَّم جزءاً مكملاً لمواعظهم النظامية تبعاً لقواعد محددة ونماذج توفرها كتب مخصصة مثل «مكتبة الواعظ» لصاحبها ڤنسان هوذري، في بداية القرن الثامن عشر الذي يخصص 103 صفحات لمادَّة «جهنم» ويشير المؤلف إلى جميع البراعات التي يمكن بواسطتها إثارة العذاب ، ويطلب أن يشار دائماً إلى أهمية الصفة الحتمية لجهنم ، كنتيجة لا مفر منها لحب الله وعدله . إن جهنم هي «معقولة

إلى آخر الحدود» .

ويعرض ڤنسان هودري أيضاً تصميماً نموذجياً ومثالاً للأبحاث الكلاسيكية بثلاثة أقسام في ثلاثة ، صنعت منه المواعظ الدومينيكية مئات النماذج :

ــ مدخل : ها أنا محدثكم عن شيء رهيب .

ــ القسم الأول : عذاب الجحيم .

1) يزيده أهمية الخير المفقود .
2) يضخمه عنف الرغبة في الإنضمام إلى الله .
3) يعظم من هوله التأمل في عبثية الأشياء التي فقدت من أجلها هذه الخيرات .

ــ القسم الثاني : آلام الحواس المتمحورة حول النار الفائقة الطبيعة .

1) تأثير هذه النار في النفس والجسد .
2) توحِّد فيها كل العذابات الممكنة .
3) تسبب ألماً عظيماً بسبب انتشارها الشامل .

ــ القسم الثالث : أبدية هذين النوعين من العذابات .

1) إنها أبدية عادلة ومنصفة .
2) التفكير بهذه الأبدية يجعل الألم لا يطاق .
3) غريب عمى الناس الذين يصرون على ارتكاب المعاصي .

ــ الخاصة : تغير مجرى الحياة في الحال .

يعطي الوعظ التقليدي أهمية قصوى للوجه القمعي للدين . وتظهر إحصاءات مستندة إلى مئة مؤلف من مجموعة المبشرين المسيحيين التي نشرها الأب مينيه (Migne) في القرن التاسع عشر ، واستناداً إلى جان دولومو (Delumeau) ، أن نسبة القسم الذي يتحدث عن «التأثيم والتألم» يتراوح ما بين 61 و84٪ من مؤلفات المبشرين . ويبذل هؤلاء قصارى جهدهم ليثيروا الإهتمام بآلام الهالكين التي لا تغتفر ، حاشدين الصور والتشابيه ولا يحجمون عن الإساءة إلى الحشمة والذوق السليم هادفين إلى أن يكونوا واقعيين . هاكم مقطعاً مقتبساً من عشرات الآلاف من

الصفحات من الآداب الجهنمية ، وهو عبارة عن عظة لكاهن يسوعي يدعى پيار كوتون (1564 - 1626) ألقاها سنة 1616 في موضوع «جهنم وعذاباتها» . فبعد أحاديث لا تنتهي عن الدينونة وطريقة إخراجها ، يحشر الهالكون «التيوس النتنة الدنسة» ذات الأجسام «الخسيسة النتنة المشوهة المخيفة المرعبة» ، إلى مملكة الشيطان على عمق 1760 فرسخاً تحت الأرض . وهذا هو وصف المكان . 1 . جهنم هي سجن أبدي مكتظ بالنار والعذاب المرعب الذي لا حصر له ؛ لمعاقبة الذين ماتوا في حال الخطيئة المميتة عقاباً أبدياً . 2 . جهنم هي مكان تحت الأرض مظلم قاتم في وسط العالم حيث لا يدخل البتة لا نور الشمس ولا ضوء القمر ولا النجوم وحيث النار ، بالرغم من أنها محرقة ، لا تعطي نوراً . 3 . جهنم هي معي (مصران) ضيق جداً يلتف حول سرَّة الأرض حيث لا يتوفر لجثث الهالكين مقدار قبر يلحدون فيه . وهم مكدسون بعضهم فوق بعض كما نرى القرميد في قمائن الجير (أتون لصنع الكلس) الواحدة تلاصق الأخرى . 4 . جهنم هي ، بحسب القديس يوحنا ، بحيرة من نار وكبريت ، والحرارة المرتفعة المعدة للتعذيب لا أمل في تبريدها ، من هنا صريف الأسنان الذي يتحدث عنه الكتاب . 5 . جهنم مكان حاشد بكل أنواع القذارات التي تسيل من مجارير المنازل وقاذورات القرى ومراحيض السفن . 6 . جهنم هي مدفن للجثث يقذف فيها الملائكة إفرازات الأجسام البشرية منذ أول مجرم وقاتل لأخيه حتى المسيح الدجال وأتباعه . 7 . جهنم هي غار نتن يتصبب فيه عرق أجسام الهالكين الأحياء . ومن جثثهم الخبيثة يسح عرق متعفن لا يطاق . 8 . جهنم هي كوخ غضب قفص مجانين ومجمَّع حمقى . 9 . جهنم حفرة مقفلة من جميع الجهات بأقفال وقضبان حديد وغالات أبدية وفوقها خاتم غضب الله . 10 . قال ترتليانوس متذمِّراً من الذين يريدون أن يكون كل ما يقال عن جهنم أخباراً مجازية : إن جهنم نار خفية تحأرضية معدة للاقتصاص . . . ومن هؤلاء التعيس كلفان ، وما يقوله حول ما جاء في الفصل الثلاثين من نبوءة إشعيا حيث ورد ذكر التوفت[1]

---

(1) Tophèt وقد ورد تفسيرها في الكتاب المقدس ، الطبعة الأورشليمية كما يلي : قد تعني محرقة وهي في مكان ما من وادي بن هنُّوم حيث كان يضحى بالأولاد قرباناً للإله مولك (Molek) ـ وقد جاء في الآية 33 من الفصل 30 : لأن توفت معدة من الأمس مهيأة للملك عميقة واسعة ملؤها نار وحطب كثير ونسمة الرب كسيل من كبريت تضرمها ـ م ـ .

(Tophèt) . 11 . جهنم حالة دائمة يحرم فيها أعداء الله من الخيرات التي كانوا يتوقون إليها ويكابدون الآلام التي كانوا يخافونها . 12 . جهنم هي ركام من العذاب عظيم حتى إن كل الآلام الأخرى التي تسببها العقارب ومنصّات التنكيل ودواليب التعذيب والصواري المحمّاة والمشاوي وثيران الفولاذ وحجارة الرحى والسلخ وخلع الأعضاء والخازوق وخوذات النار ونخس المخارز تضم إليها جميع أنواع المغص والتشنجات وحالات الضيق وتقلص الأعصاب وأمراض أخرى مهما كانت عظيمة وحارقة وحساسة فهي ليست بالنسبة إلى عذاب جهنم سوى وقع الندى» .

ثم يعدد أنواع التعذيب ، ويعرض الأب كوتون على مدى صفحات وصفحات كل الأهوال التي استطاع أن يجمعها ، وليس هناك سوى أجسام «مخوزقة» ، ممزقة ، مسحوقة ، مغليّه على النار ، مشوية ، مسجونة في علب محمّاة ، وأثداء وأعضاء تناسلية مقطوعة ومثقّبة : ويذكر في عدة صفحات إضافية طرق عمل النار مؤكّداً أن ذلك كله ليس رمزياً عكس ما يعتقده هذا «الملحد التاعس» كلڤان . وأخيراً ، وبعد أن يذهل السامع بهذا العرض للّحم والدم والنار يرهق السامع بالأعداد التي يوحي تراكمها الأخرق بالأبدية : «هناك تمضي العشرات من السنين والعشرونات والمئات والألوف وعشرات الألوف والملايين ومئات الملايين وملايين الملايين ومليارات المليارات والعذاب يتكرر ولا يتغيّر» .

وفي بلاطات الملوك ، حيث تدعو الحاجة أيضاً ، إلى التحدث عن جهنم ، يُقدَّم للنبلاء نسخة عنها ملطفة . ويطمئن بوردالو ، في عظة عن جهنم «المستمعين الأعزاء» بأن الشعب البدائي بحاجة إلى هذه الصورة السوقية ، لكن جهنم الأرستقراطية المعدة للأشراف هي أكثر تأنقاً ؛ لكل طبقة من الناس جهنمها : «تعرض هذه الحقيقة على الشعوب تحت أشكال حسية : مستنقعات من نار ، هاويات ملتهبة ، أشباح مفزعة ، صريف أسنان . أما أنتم يا أعزائي المستمعين ، وإن كنتم من هذا العالم ومن لحم ودم ، فأنتم بمعنى آخر روحانيون ، أنتم عقلاء هذا العالم وتطبق عليكم هذه الحقيقة ببساطتها الإيمانية ، بحيث إنكم تعطون عنها فهما دقيقاً كافياً لكي يهديكم إلى التقوى .

ويبرهن ميشال هولان ، في «الوجه الخفي للزمن» و«تطورات العالم الآخر» ، بكل

وضوح ، المعنى الدقيق العميق لهذه المواعظ التي تهدف إلى إعطاء صورة نقية عن العذاب ، عذاب داخلي وخارجي معاً ، مكوِّن محيطاً ضاغطاً عن طريق الحشد وضيق المكان ، لا مجال للراحة لا مكان للإنتعاش ، مع وعي مستمر لأبدية هذا الوضع . جهنم المسيحية هي أكمل نظام شمولي للعذاب تصوره عقل بشري . إنها عالم مقفل من الشر المطلق وهي نقيض منطقي لدين المحبة المطلقة .

وتقدم البروتستانتية ، في القرن الثامن عشر ، نموذجاً مماثلاً في خطب الأنغليكانيين والطهريين من أمثال ج . دونّ (J. Donne) ، ر . باكْسْتر ، إ . كالامي ، ت . غودوين ، و . پركنز . والمعمداني جون بونيان تلح عليه رؤيا الجَحيم الذي يعرض عذاباته سنة 1658 في كتابه «بعض مشاهد من جهنم» الذي طبع خمساً وثلاثين مرة في القرنين السابع عشر والثامن عشر فيما يؤلف جون ملتون سنة 1667 ملحمته الجهنمية الرمزية الضخمة «الفردوس المفقود» .

هل يمكن أن نميز بين جهنم ذات نمط كلاسيكي وجهنم ذات نمط باروكي[1] . إن التقسيم في هذا المجال لا يتفق مع التقسيم الذي نصادفه في المجال الفني والثقافي بشكل عام . ويترسخ التناقض الخطير في القرنين السابع عشر والثامن عشر بين جهنم الحسية وجهنم العقلية .

الأولى هي للطبقة الدنيا ، لعامة الشعب تتحدث عنها خدمة راعوية/ مواعظ مكيفة حسب الحاجة فظة متنوعة . وجاءت مجموعة ن . جيرار التي ألّفها في القرن الثامن عشر وعنوانها «المواعظ الموجزة أو التوجيهات الشائعة الموجهة خاصة إلى الشعوب الريفية» لتعطي فكرة جيدة معتمدة على جميع سجلات آثار النار ، مصوِّرة الهالكين كأتانين (جمع أتون) حية : «يتحول لسانهم قضيباً من حديد أحمر كالجمر . وشفاههم صفائح حارقة من نحاس ، وسقوف حلوقهم أتانين مشتعلة . وأسنانهم صفائح من حديد كاوٍ ، ورئاتهم منافخ للنار ، وبطونهم ومِعَدُهم بواتق تذوَّب فيها أقسى المعادن» .

---

(1) يتميز الفن الباروكي (Baroque) بالزخرفة والحركية والحرية في الشكل وهو نقيض الأسلوب الإتباعي (الكلاسيكي) . ـ م ـ .

وفي العصر نفسه ظهر كتيِّب شعبي ذو عنوان لافت «فكِّر فيها جيِّداً» أو تأملات حول النهايات الأربع الأخيرة يضيف إلى النار الأفاعي والتنانين ، ويجهد في البرهنة على أن الحواس الخمس معنية جميعاً بالعذاب : «بعد يوم الدينونة يكون لكل من الحواس الخمس عذابها الخاص ، فحاسة اللمس تحس بقوة باللهب المفترس ؛ وتستعرض حاسة النظر أشياء مخيفة مثل التنانين والأشباح المرعبة ، وحاسة الذوق تعاني المرارات الدائمة ، وحاسة الشم تشم النتن الرهيب والأذان تسمع الشتائم والصراخ وزمجرة الهالكين وقهقهات الأبالسة الساخرة من المسيحيين الذين توفرت لهم فرص ووسائل عديدة لتخليص نفوسهم فلم يفعلوا» .

هذه الصور التي ينقلها رسل الداخل تجعل سكان الريف يرتعدون . وألقى واحد من أكبر الإختصاصيين في هذا المجال ، هو الأب جوليان مونوار ، عظات في 375 بعثة في مقاطعة بريتانيا السفلى ما بين 1642 و1682 مستخدماً أكثر الأساليب التربوية ثورية مثل لوحات مصورة تمثل الطريق الفسيح ، السهل الذي يوصل إلى جهنم . وكان الترهيب حجته الرئيسية كما يروي هو بنفسه على أثر إحدى البعثات إلى أُويسُّون : «نتكلم عن عذابات الجحيم والخطايا التي تبلغ بالناس إلى هناك» . وكان السكان ينتحبون قائلين : «واحسرتاه ! لقد عشنا حتى الآن كالبهائم ثم ! يا الله الكلي الصلاح ، أي عرفان بالجميل ندين به إلى هؤلاء الأباء الذين أنقذونا من هذه الحالة البائسة» . . .

لم يكن ڤنسان دو پول الصالح أكثر رأفة . إذ نراه في «مجموعة مواعظ في بعثات ريفية» ذات يوم ليس كباقي الأيام ، يكيل التهديدات . وفي موعظته «عذابات جهنم الجسدية» يبدو ذاك المكان وكأنه قائم في مركز الأرض ، قاذورة كبريت وقار تتراكم فيها كل أقذار الكرة الأرضية . وبالرغم من الظلام المطبق نرى «البشاعة المرعبة في أجسام الهالكين» و «دواليب العذاب والحمم والخلاقين تغلي والتنانين والأفاعي» وطعامهم هناك «الضفادع والأفاعي واللحوم المهترئة النتنة» . ولا مجال ثمة لأية شفقة ، وعلى مثال الغني الشرير الذي يتوسل من أجل نقطة ماء منذ ألف وستمائة سنة فيجيبه الله : «تذكر أنك نلت خيراتك في حياتك ؛ ويجب أن تعاقب الآن على شراهتك جوعاً وعطشاً يحملانك على الصراخ والبكاء والعويل البائس وصريف الأسنان دون أن تحظى من الله بشفقة» .

ويتساءل الأكليروس المثقف في القرن العظيم (= السابع عشر) عن هذه الصور المؤثرة ، ويسأل الكاهن اليسوعي كْراسِّيه سنة 1680 : «من يمكنه أن يقول أو يدرك ما هي جهنم . وما هو أقل مقدار من الشقاء تحتويه؟» . ويشك الراهب الجنسيني[1] نقولا بوجود الديدان والأفاعي الجهنمية .

وينفر بوسُّويه ، الذي يُعتبر تجسد للكنيسة الكلاسيكية ، من التحدث عن جهنم . وتراثه الضخم لا يتضمن أية إشارة إليها . إنه يزدري الجهنمات الباروكية الشعبية ويكوِّن لنفسه مفهوماً أكثر روحانية عن وضع الهالكين : «أقول إن كونهم منفصلين عن هذه الوحدة يجعلهم يبدأون جهنمهم الخاصة على هذه الأرض ، إن آثامهم هي التي تقذف بهم إلى تلك المهاوي . فلا نتصوَّرنَّ أن جهنم تقوم على هذا العذاب المخيف . في مستنقع للنار والكبريت في هذا اللهيب المفترس أبداً ، في هذا السخط ، هذا اليأس ، في صريف الأسنان المرعب . إن جهنم ، لو أدركنا ، هي الخطيئة بالذات . جهنم هي الإبتعاد عن الله ؛ والبرهان على ذلك واضح في الكتب» .

وردت هذه الفكرة في عظة «مجد الله في توبة الخطأة» وأتبعت بملاحظة قيِّمة هي : «إن جهنم هي كل واحد منا عندما نعيش الخطيئة ، ويسوع ينزل باستمرار إلى جهنمنا ليقترح علينا الخلاص . هناك بون شاسع بين جهنم الباروكية الشعبية وجهنم بوسُّويه الكلاسيكية الفكرية ، ويضيف : «إن الخاطىء هو نفسه عذابه» .

II ـ جحيم مزدحم بالنزلاء

برز في القرن السادس عشر السؤال عن عدد الهالكين مع حدث إكتشاف أميركا وملايينها من الهنود ومئات الملايين من أسلافهم الذين لم يسمع واحد منهم باسم المسيح وبالبشارة الجديدة . والحال ، إن موقف الكنيسة إزاء هذا الموضوع بدا متشدداً مع إقرار مقولة «لا خلاص خارج الكنيسة» . وكانت محكمة التفتيش قد أوقفت أستاذاً من بولونيا (الإيطالية) يدعى مارسيو غاليوتي (1440 - 1491) وذلك قبل رحلة كريستوف كولمبوس بعام واحد ، لأنه أنكر الدينونة الأبدية للوثنيين . وكان لاهوتيو

(1) من أتباع مذهب الجنسينية (jansenisme) ، وهو مذهب أخلاقي متشدد يُنسب إلى مؤسسة جانسينيوس (1585 - 1638) . ـــ م ـــ .

القرون الوسطى يعتقدون أن هؤلاء هم بقايا هامشية قليلة العدد بالنسبة إلى مجموع المسيحيين .

وعادت الإكتشافات العظيمة تثير الشكوك حول هذا التقييم العددي . هل يجب التشبث بهذا الموقف المتصلب والقبول دفعة واحدة بوجود الملايين بل المليارات من الهالكين الإضافيين؟ ! البعض يظن ذلك ، غير أن البعض الآخر يبحث عن أسباب توفيقية . يصرِّح الإنسانوي لويس ڤيڤيس واللاهوتيون ڤيغا ، دوسوتو ، مارتينيز دو ريپالدا أن احترام القانون الطبيعي كان كافياً ، في حين أن كلود دو سايسيل رئيس أساقفة توران يفتي بأن الهنود الذين ماتوا وثنيين يمكن أن يذهبوا إلى اليمبس ، وقد رفض الدكتور الميلاني فرنسوا كولّيوسْ قائلاً : «لا يتمكن أحد ، بدون النعمة الإلهية التي تكتسب بسرِّ العماد ، من أن يبقى أميناً للقانون الطبيعي ؛ وقد نوقشت المسألة طويلاً سنة 1950 وقد جاء في «معجم اللاهوت الكاثوليكي» أنه إذا كان «الملحد الإيجابي» أي الذي يرفض الوحي ، هالكاً ؛ فإن حالة «الملحد السلبي» ، أي الذين لم يصله الوحي ، غامضة .

على أي حال ، فإن عدد الهالكين ، في رأي ملافنة القرن السابع عشر ووعاظه ، يظل أعلى بكثير من عدد الناجين . وجاء على لسان لويس دو غريناد : «إن عدداً ضئيلاً من الناس ينال الخلاص الأبدي» . ويكتب الكردينال بلاَّرْمانْ : «إن عدد المغضوب عليهم شبيه بعدد حبات الزيتون التي تتساقط عندما تهز الشجرة» . ويصرِّح ڤنسان دو پول : «أعتقد أن نصف البشرية لا بل ثلاثة أرباعها سيدانون بسبب خطيئة الكسل» . ويزايد غرينيون دو مونفور قائلاً : «إن عدد الناجين قليل جداً جداً ، وهو بنسبة واحد إلى عشرة آلاف على الأكثر» . أما جوليان لوريو ، أحد الوعاظ الرهبان ، فعنده إحصاءات دقيقة قدَّمها له أحد العائدين من العالم الآخر المجهولي الهوية ، وقد أذاعها في إحدى مواعظه تحت عنوان «في عدد الناجين الضئيل» قائلاً : «إن من بين الستين ألف وفاة التي تحدث في العالم يومياً ، شخصاً واحداً فقط يخلص وثلاثة يكون نصيبهم المطهر ، أما الباقون وهم 59996 فهالكون ! وبالنسبة إلى مالبرانش «فإن عدد الهالكين يفوق عدد الناجين بعشرين مرّة ، بمئة مرة» . ويرى ماسِّيُّون «إن الأكثرية الساحقة هي جماعة الهالكين» . الأمر الذي لا

يعتبر تراجعاً من قبل الله المستعد لإدانة كل خليقته إذا اضطر إلى ذلك ، لأنه لا يعد المجرمين بل ينظر فقط إلى الجرائم» .

كان الإيمان ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، تشاؤمياً ونخبوياً ، يتطلب مستوى من الحياة الزهدية تتعدى طاقة السواد الأعظم من المسيحيين . لقد كان عقلانياً ومنطقياً أكثر مما كان عطوفاً ، ويستخلص النتائج رياضياً ويدين الجماهير بأعصاب باردة .

III ـ تصلب القرن التاسع عشر

لم يكن القرن التاسع عشر رحيماً متسامحاً ، بل كان جو الصراعات الاجتماعية والسياسية ، على نقيض ذلك ، يزيد من تشدد الموقف الرادع للكنيسة في موقعها الدفاعي . وإذ لم يعد تحت تصرفها ، في أكثر الحالات ، ذلك العون الذي توفره لها أيد علمانية لتأمين النظام الأخلاقي على هذه الأرض ، وجهت صواعق نقمتها على أخصامها إلى العالم الآخر . فكان تلاميذ الفلاسفة وأحرار المفكرين والملحدون والليبراليون والإشتراكيون والثوريون والمطلّقون ومحامو العلمانية وكثيرون آخرون ممن هم رموز للمعاصي المعاصرة ، كان كل هؤلاء يهبطون إلى جهنم زرافات زرافات .

وكان رجال الدين الذين نشأوا في عزلة عن العالم في أديرة متقشفة متزمتة يظهرون تشدداً لاهوادة فيه في إدارة الرعايا أخلاقياً . ويطلب بيار ــ دنيس بْوايِّيه ، مدير أكليريكية سان ـ سولپيس المتوفّى سنة 1842 ، من كهنة المستقبل أن يُحسنوا معالجة «هول دينونة الله» ، دون خوف من المبالغات ، لأنه لا مجال للمبالغة عندما يتحدث الإنسان عن موضوع لا تستطيع مخيلة الإنسان ولا عقله أن يبلغاه أبداً» . وفضلاً عن ذلك لقد قال لطلاَّبه : إنكم لا شك ستكونون أنتم أنفسكم هالكين ، لأنه قلما يكون الكاهن على مستوى مسؤولياته الخطيرة ؛ وإن العزوف عن دعوتكم سيكون بلا جدوى : فتدانون لأنكم رفضتم دعوة الله» .

وفي إطار هذه الظروف نتفهَّم الإتجاه الإرهابي الذي تسلكه الراعوية العادية والإستثنائية ، أثناء البعثات الداخلية مثلاً حيث نرى المدعو جان ــ ماري دو لامْنيه يردِّد ، من رعية إلى رعية ، صلاته الجنائزية : كان إذا وقف واعظاً بين المقابر ، يحمل تابوتاً مليئاً بالجماجم ويقيم معها حواراً وهمياً فتجيبه جميعاً أن نفوسها في جهنم .

إن تعاليم المدارس الإكليريكية تنمّي لدى بعض النفوس الهشة وسواسا مرضياً بجهنم . من هؤلاء خادم رعية أرْسْ ، جان ـــ ماري ڤْيانّي ، كان الشيطان يعذبه طيلة أيام حياته ، فيرى التهديد بالدينونة في كل مكان . في الأفكار الدنسة ، في الشرود أثناء القداس ، في شتيمة ، في عمل يقوم به يوم الأحد . «ومما لا شك فيه أن العدد الأكبر من المتزوجين هالكون» . ولا أمل بالخلاص للمليارات من الوثنيين الذين لم يتعرفوا إلى الإنجيل . إن الله ينتشي بالإنتقام ، وسيكون يوم الدينونة رهيباً . ويُطرَح السواد الأعظم من البشرية في النار الخالدة : «محاكمة مرعبة ولكنها في منتهى العدل . بل أي شيء أعدل من هذا» .

ويطرأ هم جديد في القرن التاسع عشر جاء يزكي وسيلة استغلال جهم : وهو الدفاع عن النظام الاجتماعي . وفي سنة 1850 يصرح الأب كوسِّيت ، رئيس بعثة المبشرين المرسلين إلى تولوز ، أن الثورة هي نتيجة ضعف الإيمان بجهنم : «لقد أزيلت جهنم من رمز وطننا فرنسا . وها هي الحرية الإنسانية ، دون حكومة ولا من ينوب عنها ، ترتمي في هاويات لا تزال تحتفظ منها بالندوب ، وجهنم التي أنكرتها ، كما من أجل أن يزداد اطمئنانها ، تغلغلت في كيانها» . ويقول الأب كوسِّيت : «ألغوا الإيمان بالعقاب الأبدي يصبح العالم بابلاً» .

ليست جهنم الحاجز الأخير فقط للأخلاق الفردية كما في الروحانية الكلاسيكية . إنها أيضاً خير ضامن للإستقرار الاجتماعي ، والله من أجل ذلك خلقها ، كما جاء في كتابات كلود لاكودْرْ ، كاهن رعية بايّو (Bayeux) (1755 - 1836) : «إن في الطبيعة البشرية من الفساد ما يجعل الإنسان شريراً حتماً إذا لم يكن ثمة ما يخافه [. . .] . وكان ذلك حكمة من الله أن أوجد ، ليس فقط ، عقاباً بعد الحياة بل أيضاً عقاباً أبدياً . هل كان باستطاعته ، لولا ذلك ، أن يلجم النزوات البشرية ويحافظ على النظام في العالم؟» .

وفي نهاية العصر ، انبرى الواعظ الدومينيكاني الشهير جان مونْسابْريه الذي كان يلقي المواعظ أثناء الصيام في كنيسة نوتْرْدام في باريس من سنة 1871 إلى سنة 1890 حول أبدية العذاب : إن الفائدة الاجتماعية بالنسبة إليه أساسية ، وإن مَثَل الابن المبذِّر (الابن الشاطر) ، الذي سامحه أبوه ، لا يعني له شيئاً البتة . فلو لم تكن جهنم

موجودة «لما كان الله والإنسان سوى ممثلين لملهاة بائسة تنتهي دائماً بوجود أب طيب القلب لا يعدم وسيلة لاحتضان ابن تافه خسيس ينقل إليه إرثه» . إن جهنم ضرورة ملحة للدفاع عن الملكية ، إنها «سجن العالم الآخر» . فلولاها لكنا نرى «نيرون منتشياً بالسعادة على قلب القديس ڤنسان دو پول» . زد على ذلك أنه لو لم تكن جهنم موجودة ، فمن أي شيء يكون موت المسيح قد أنقذنا؟ إذاً يجب أن نشهر سلاح التخويف من الجحيم ، ألاّ نخاف من الترهيب ، وخاصة ألا ندع مجالاً للمشاعر : «لا شفقة ، من فضلكم ، لا تحنّن صبيانياً ، لا دموع ! لا تمنحوا المغضوب عليهم عزاء السخرية منكم ، لأن الواحد منهم ، عندئذ ، يتهم نفسه ، يدين نفسه ، يلعن نفسه» .

والصحافة الإكليريكية هي على أتم الإتفاق مع ذلك ، ففي سنة 1901 ، وفي ذروة الصراعات حول العلمانية أجابت مجلة «صديق الأكليروس» كاهناً كان يتساءل ما إذا كانت الأحاديث عن جهنم مبالغاً فيها شيئاً ما ، قائلة : «يجب أن نتحاشى تصوير جهنم ملطفة إلى حد يستطيع المؤمنون معه اعتبارها مصيراً يمكن تحمله . فبدلاً من أن نحاول إضعاف الإعتقاد بجهنم بإيجاد تسهيلات مستحيلة ، لنجهدن في أن نلقي في روع الناس الخوفَ المنقذ من العذابات الهائلة التي تنتظر الخطأة غير النادمين على خطاياهم ! وهي أفضل طريقة لجعلهم يتفادونها» .

وفي شرقي أوروبا ، في أرياف پولونيا ، كان الإكليروس الكلي القدرة يرهب القرويين بالطريقة نفسها كما يشهد على ذلك ڤنسنتي ڤيتوس (1874 - 1943) في مذكراته ، فيكتب : «إن هذه المبالغة من شأنها أن تصل ببعض الناس الشديدي الحساسية إلى حالة مَرَضية ، لأن الجحيم الذي ينتظر الخطأة جميعاً والذي يصوَّر بهذا الرعب . هو حري بأن يسبب صدمة قوية» .

وبموازاة ذلك ، كان المعتقد لا يزال يتحدد ، بالغاً من الدقة درجة مذهلة . ومن المفارقة والمغالطة التاريخية أنه لم توضع كتب عن الجحيم كالتي وضعت في القرن التاسع عشر ، وقد نوقشت فيها بالتفاصيل جميع شروط الغفران والعذابات وحياة الهالكين . واحتدمت المعارك حول عدد المختارين . ففي سنة 1897 يكتب اللاهوتي الألماني هنريتش في كتابه «اللاهوت الأدبي» أن لا مجال لإدانة الوثنيين . وفي سنة

1898 يصرح اليسوعي كاسْتلاَّين في كتاب له بعنوان «التشدد وعدد المختارين وعقيدة الخلاص» أن الهالكين هم لاَ شك قلة . وفي السنة التالية رفض ف .ك . غودْتْسْ هذا الرأي في كتابه الضخم الذي ألفه باللاتينية «قلة عدد الناجين» والذي برهن فيه 73 من آباء الكنيسة و74 لاهوتياً و28 شارحاً للكتاب المقدس ، أن عدد الهالكين أكثر من عدد الناجين . وفي سنة 1913 يقابل «معجم اللاهوت المسيحي» بين مصير الملحدين ومصيرِ المجانين فيقول : «هناك درجات مختلفة من البله» تخفف المسؤولية عن الأعمال . ويكتب اللاهوتي بالْميسْ أن «حالة الغباء» التي يعيش فيها العدد الأكبر من المتوحشين يمكنها أن تنقذهم من الدينونة لأنهم أشد خبلاً من أن يعرفوا الإله الحقيقي . وفي سنة 1924 يدين أ . ميشال هذا التسامح في كتابه «النهايات الأخيرة» ويعتبره تسامحاً مجرماً .

ويشتبك اللاهوتيون في معارك عقيمة مستمرين في مناقشة أوضاع الجحيم في حين أن وجوده بالذات مهدد .

IV ـ نقد الجحيم
(القرنان الثامن عشر والتاسع عشر)

منذ منتصف القرن السابع عشر تعرضت بعض النقاط الأساسية من عقيدة الجحيم إلى هجمات صادرة عن أوساط مختلفة ومتحررة مثل التيارات البروتستانتية وبعض العناصر اليهودية . وفي سنة 1654 نشر كتاب للطبيب والفيلسوف الألماني سونر بعد وفاته وعنوانه هذا يلخص محتواه : «برهان لاهوتي وفلسفي عن هذه القضية وهي أن العذابات الأبدية التي يكابدها الخطأة لا تؤكد عدالة الله بل ظلمه» .

وبعد ثلاث سنوات وبطريقة ساخرة يستغل سيرانو دو برجراك ، في كتابه «التاريخ الهزلي لدول القمر وإمبراطورياته» الخطأ الجسيم الذي تمثل بمحاكمة غاليليه سنة 1633 فيضع على لسان أحد اليسوعيين تفسيراً طريفاً لحركة الأرض فيقول : «أتصور أن الأرض تدور ، ليس للأسباب التي ادعاها كوبرنيك ، ولكن لأن نار الجحيم ، كما يعلمنا الكتاب المقدس ، كونها محصورة في مركز الأرض ، يحاول الهالكون التهرب من حرارة لهيبها فيتسلقون بعناء ليبتعدوا نحو قبة الجحيم ، وهكذا

يجعلون الأرض تدور مثل كلب يدير دولاباً عندما يركض محصوراً في داخله» .

والجحيم ، بالنسبة إلى ملحدي القرن العظيم وفاسقيه ، هو مناسبة ممتازة للسخرية من الدين . ويكتب الكافر جان دومينو 1670 ما يلي : أليس كل ذلك سوى أكاذيب أو أحاديث في الهواء أو أضغاث أحلام .

وكذلك الفلاسفة على هامش أرثوذكسية الديانات الكبرى مثل سپينوزا وهوبس ينكرون كل ما يقال عن عقاب بعد الموت .

وفيما بين 1680 و1720 وأثناء «محنة الضمير الأوروبي» التي عالجها پول هازار بطريقة رائعة ، كثرت التهجمات من داخل الكنيسة بالذات .

والكتَّاب الذين مهَّدوا للآلهيين (عُبَّاد الله وحده) يستخدمون الشعور والعقل النقدي لينكروا أبدية العذاب بشكل خاص . وفي سنة 1695 يكتب عابد الله شوليو : «ليس إلهي إلهاً قاسياً» ؛ إنه لا يرتكب هذه الفظاعات . وقد أيّد هذا الرأي البارون دولا هونتان 1703 . وعادت فكرة أوريجينوس بخصوص الخلاص الشامل ، إلى الظهور مجدَّداً مع «الإنجيل السرمدي لإصلاح كل المخلوقات بشكل عام» . وهو كتاب مُغْفَل ظهر سنة 1699 . و«سر الإصلاح الشامل» لمؤلفه جان ــ غليوم پيترسون الذي ظهر في ثلاثة أجزاء ما بين سنة 1700 وسنة 1710 . وفي سنة 1697 يوقع بوسّويه ، نْواي ، رئيس أساقفة باريس ، ولوتيليبيه ، رئيس أساقفة ريمس ، بياناً يدينون فيه رأي الكردينال سفوندرات الذي كان يخص الأولاد الذين ماتوا بلا عماد ببعض الرحمة .

ولم يكن كل ذلك سوى دغدغة إلى جانب الهجمات التي شنها پيار بايل الذي يحمل على عمق المسألة : «إن مفهوم الجحيم بحد ذاته لا يتفق إطلاقاً مع رحمة الله . والتذرع بأن للإنسان ملء الحرية ، بعد كل هذا ، في أن يؤمِّن خلاصه ، هو حجة باطلة : فالله كان يعلم أن الكثيرين يسيئون استخدام هذه الحرية ويحكمون على أنفسهم بالهلاك . من المستحيل أن يكون قد ترك الأمور تجري هكذا . حتى جحيم محدود المدى لا يمكن القبول به : «لا تستطيعون أن تبلغوا أقصى صلاح الله ما لم تتذوقوا عذاب جهنم حتى آخر دقيقة . أما بخصوص الفائدة الاجتماعية للتهديد

بجهنم فيكفي أن نستنتج أن نسبة الفاسقين لدى المسيحيين تضاهي نسبتهم لدى الديانات الأخرى ولدى الملحدين .

تدين الكنيسة كل هذه الفظاعات محرمة كل مؤلفات بايلْ . أمّا لايبنز فيردّ سنة 1710 على ذلك بدراسة فلسفية عنوانها : مقالات لاهوتية تعالج جودة الله وحرية الإنسان وأصل الشر . «فجهنم ، عنده ، تندمج إندماجاً كلياً مع الإيقاع الكوني حيث يسود التوازن كل شيء . ويكتب : «قد يكون مجد الطوباويين في نظر العزة الإلهية من العظمة بحيث لا يمكن لآلام جميع الهالكين أن تقارن به» . زد على ذلك أنه حتى لو كان أكثر الناس هالكين فإن التوازن يستقيم حكماً بواسطة خلاص المخلوقات التي تعيش خارج عالم الأرض : «أما بخصوص عدد الهالكين وإذا زاد كثيراً على عدد الناجين ، فهذا لا يحول دون أن تتفوق المخلوقات السعيدة في الكون عددياً على المخلوقات التعيسة .

كان هذا النوع من الحجج متعة لفلاسفة القرن الثامن عشر بدءاً بڤولتير الذي جعل من الجحيم في «المعجم الفلسفي» اختراعاً معداً لتمويه ثغرات العدالة الإنسانية . والفلاسفة جميعاً متفقون تقريباً ضد الجحيم . ويحمل مونتسكيو خاصة على سمة الأبدية في مقال يعود تاريخه إلى سنة 1717 بعنوان «ضد الإدانة الأبدية للوثنيين» . ويرى مارمونتيل ، أن جهنم هي الأوزار التي يحملنا إياها ، على هذه الأرض ، القادة السياسيون . ويقول ديديرو «لقد طلب إلى اللاهوتيين ، منذ أمد طويل ، أن يُوفِّقوا بين معتقد العذاب الأبدي ورحمة الله المتناهية ، وهم لا يزالون على موقفهم» . إن هذا الإيمان مستحيل بالنسبة إلى دولباخ (D'Holbach) . وكان كاهن سافوا دو روسو أكثر دقة إذ يقول :

يجب الإقتصاص من الأشرار حتماً ولكن القصاص يبدأ في هذه الحياة مع الآلام التي يسببها الخبث لدى فاعليه ؛ ولا شك أنه يستمر بعد الموت ولكن مؤقتاً ويشكل تأنيب ضمير فقط .

وراحت فكرة الخلاص الشامل تنتشر بحياء حتى بين الإكليروس . ففي سنة 1716 يكتب بيار كوبيه ، الكاهن القانوني في أبرشية سانت (Saintes) : السماء مفتوحة

لكل الناس أو دراسة لاهوتية بواسطتها نبرهن بقوة ، ودون أن نُسيء إلى الممارسات الدينية ، مستعينين بالكتاب المقدس وبالعقل ، أن الناس جميعاً ناجون» . لم ينشر الكتاب إلاّ سنة 1743 بالإنكليزية وسنة 1768 بالفرنسية . وبالذهنية ذاتها يكتب السيد لويس سنة 1782 في كتاب «السماء مفتوحة للكون كله» : «ليست جهنم سوى رواية رعب ورجس بإمكانها أن تعيد الكوكب الذي ينيرنا إلى الوراء» .

وفي نهاية النظام القديم تعرض الإيمان بجهنم التقليدية إلى هزات خطيرة في أوساط رجال الفكر . لقد تلاشى هذا المعتقد بالنسبة إلى فيليپ أرياس . إن هذا المعتقد قد تلاشى . وتظل تعاليم الكنيسة صامدة عند هذه النقطة ، مع تطور مهم في الحجة ، إذ حل محل الأسباب اللاهوتية شيئاً فشيئاً سبب الفائدة الاجتماعية وهو أن جهنم هي خير واقٍ للنظام والأخلاق فهي إذاً ضرورية . ذاك هو تفكير الأب برجييه مؤلف مقال «جهنّم» في الموسوعة . ويتبنى بعض الثوريين هذا التبرير النفعي مثل محب الرب[1] المدعو شومان (Chemin) .

إن الإعتقاد لا يزال على حاله لم يمس لدى عامة المؤمنين ، بينما ظهرت أفكار جديدة محصورة في أقلية ضئيلة . هكذا أمكن تفسير كتاب سادْ كرغبة في الإدانة وتحقيق جهنم على الأرض .

وراحت الصدمة الثورية تصلّب المواقف : تقوية التزمت في الإيمان لدى الإكليروس . تصاعُد الإحتجاج وتراجُع الخوف عند المؤمنين وظهور جهنمات علمانية جديدة .

---

(1) Théophilanthrope عضو مذهب فلسفي قائم على الإيمان برب قادر رحيم ـــ م ـــ .

الفصل التاسع

تحولات جهنم
القرن التاسع عشر ـ القرن العشرون

لقد طرأ بعض التبدل على مفهوم الجحيم على مدى القرنين الأخيرين . وبعد اتساع معنى هذه اللفظة التي أصبحت بتحوير لغوي تعني كل وضع صعب ، والتي فقدت في التعبير الجاري جزءاً كبيراً من قوتها ، حصل هذا التحول العظيم بسبب انتقال المكان الخاص بها . وكانت جهنم المسيحية التقليدية التي انطلقت إمكانية تقديمها من كتابات الفلاسفة تراجعت بالتالي في ذهن الشعب . كانت هدفاً لتعديل عميق في اللاهوت الكاثوليكي وخاصة على أثر انعقاد المجمع الفاتيكاني الثاني . فالمساوىء التي سببتها فيما مضى الطريقة الراعوية الترهيبية أربكت الكنيسة المعاصرة ، إلى درجة أنها بلغت حد اختفاء حقيقي للّفظة من اللغة الكنسية . لقد استمر المفهوم بحد ذاته ولكن بمعنى روحاني بحت لا تربطه بالمفهوم التقليدي علاقة قوية . وبموازاة ذلك ، استغل الشعراء والفلاسفة جهنم التي أصبحت عنصراً أساسياً في تيارات فكرية عديدة ملحدة . كما لاحظ جان غيتّون . «في هذا الزمن الذي يميل فيه المؤمنون إلى التخفيف من قوة الموت الأبدي ، ليس من قبيل التناقض الغريب ، في صفوف المفكرين الجاحدين حتى الكفر المعلن ، وجوب البحث عن أدق تعابير العالم الجهنمي . ربما لم يأتِ عصر لقي فيه احتمال وجود الجحيم تعلقاً وقبولاً في الفكر العلماني مستقلاً عن كل إيمان» .

الجحيم ، في القرن التاسع عشر ، هو الموضوع المفضل لدى الشعراء «الملاعين» وفلاسفة التشاؤم المطبق . وفي القرن العشرين استخدمته الوجودية وأصبح تعبيراً عن الضيق الأساسي لدى الكائن البشري . إن الفكرة القديمة ، التي بموجبها تعتبر جهنم الوضع البشري بكل بساطة والتي لقيت الدعم منذ ألفي سنة من قبل لوكريس ثم تبنتها دورياً التيارات الدينية المنشقة ، انتهى بها الأمر إلى أن تفرض نفسها . لم تعد جهنم تحت الأرض بل فوق الأرض وفي قلب الإنسان . هذه فكرة ليست بعيدة عن علم اللاهوت إلى الحد الذي نعتقد .

I ـ تراجع الخوف الأخروي

وفي حدود السنة1680 برزت أوّل الشكوك في موضوع فعالية الترهيب من الجحيم على لسان الوعاظ الذين صدموا لعدم الحصول على نتيجة من خطبهم الدينية . وكان التناغم بينهم تاماً . لم يفهم الأب فرومونتيير لماذا ، وبالرغم من كل الجهود المبذولة لترهيب المؤمنين ، لم يرتعدوا من الخوف . ويعجب الراهب الكرملي سيمون فيقول : «تُهدِّد ، ولا أحد يرعوي أو يتوب» . ويعبر الأب دولا كولومبير عن دهشته قائلاً : «جهنم موجودة والمسيحيون يعرفون ذلك . وجهنم مليئة بالمسيحيين !» ويصرّح الأب لوريو موجِّهاً كلامه إلى مستمعيه : إن موقفكم «يجعلني أعاف رسالتي» . وتصبح الظاهرة أشد بروزاً في القرن الثامن عشر . ففي سنة يصبح الأب كومباسيريس يائساً : لم يعد المسيحيون يشعرون بالخوف : فعندما يهتمون بالدين «فمن أجل أن يروا الحقائق المعزية وكيلا يروا إلاَّ إلهاً رحيماً» .

وعكف المؤرخون المعاصرون ، فيليپ أرْيس وپيار شانو وجان دولومو وفرنسوا لوبرون وميشال ڤوڤيل وكثيرون آخرونَ ، على دراسة هذه الظاهرة ولكنهم لم يتوصلوا إلى اتفاق . يقول فيليپ أرْييس : «لم يكن لمجتمع أن يقاوم هذا النداء العاطفي إلى الخوف ، . هذا التّهديد الرؤيوي لو كان قد قبلهما وتمثلهما» .

أمَّا فرنسوا لوبرون فيفكر ، خلاف ذلك . «إن هذا الحديث الرهيب حُضِّر بطريقة علميّة ، ثم استمر لمدة ثلاثة قرون في إطار أن يبلغ هدفه وهو : البقاء في الطريق الصحيح بالتخويف من العقاب» .

وما لا يمكن إنكاره هو ما قاله جان دولومو (J. Delumeau) في القرن الثامن عشر وهو حدوث «نقص في الخوف من الله» . وقد ساعدت الصدمة الثورية على انتشار موجة التشاؤم . واضطر كهنة النصف الأول من القرن التاسع عشر ، في خطبهم عن الجحيم ، إلى إقناع المؤمنين بوجود الله . ويصرح لويس ــ أوغسطين روبينيه سنة 1824 متأسفاً : «لقد حل الحذر محل البساطة المسيحية ؛ دون أن يكونوا (المسيحيون) علماء . لقد أصبحوا أكثر ميلاً إلى البرهنة ، أكثر ادعاء وأقل ثقة برعاتهم وأقل استعداداً للإيمان بكلامهم ، فليس كافياً أن نعرض عليهم الحقائق الإيمانية ، بل يجب أن نبرهنها لهم» . يعتبرون الأحاديث عن جهنم «خرافات وأقاصيص قديمة» . ويزعمون أن «جهنم إنما وجدت للمجرمين» و «أنه يجب ألاّ يصدقوا أن فيها ناراً حارقة» . كل الوعّاظ قلقوا لهذا الموضوع ، من الأب رافينيون إلى لاكور دير في منتصف القرن .

وبعد ذلك بخمسين عاماً ، أصبح فقدان الإيمان بجهنم واضحاً جلياً . ونجد صدى ذلك في الصحافة الإكليريكية وخاصة في مجلة «صديق الإكليروس» التي نشرت رسائل لكهنة يعتريهم قلق عظيم بخصوص مسائل رعاياهم . وفي سنة 1906 كتب أحدهم : «إنه لأمر غريب ، لَكَمْ تنكر للجحيم مسيحيون ومسيحيات لا يفوتهم حضور القداس ولا صلاة العصر ويقومون بواجباتهم الدينية خير قيام ، وهم يقولون : «يتحدث الكهنة عن جهنم أبدية للتخويف والبقاء في الصراط المستقيم ولكن دون أن يؤمنوا هم بها ، لأنه من المستحيل أن توجد جهنم كما يصورونها لنا» . إن الله سيكون في هذه الحال أباً قاسياً . وعندئذ يسأل الكاهن لاهوتيي المجلة عن الموقف الذي عليه أن يتبناه ؛ ألاّ يمكن تغيير منهجِ الحديث عن جهنم والبحث عن تسويات؟

وهذا ما يقدمه أحد زملائه الذي يستنتج أن «كثيرين من الوعّاظ يتخذون قراراً بعدم التعرض لهذا الموضوع الشائك» . ويذكر بعض أحاديث رعاياه الذين يظهر أنه عاجز عن إجابتهم ؛ ومن أقوالهم : «أيُّ أب ، مهما كان قاسياً ، شاذاً ، يحرق ابنه حياً ، يحرقه على نار خفيفة ، ويبقى هادىء الأعصاب أمام آلامه؟» .

ويتساءل آخر ما إذا لم يكن عذاب جهنم انعكاساً لحالة العدالة البشرية في النظام

القديم وما إذا كانت النار ماورائية . ويطرح آخرون كل المسائل الكلاسيكية الكبرى : «ما ظنك في الرأي القائل إن الوقت يأتي ببعض التخفيف لعذاب الهالكين؟» سنة 1897 : «ما هي نسبة عدد الناجين إلى عدد الهالكين في مجموعة الجنس البشري؟ سنة 1901 ؛ «كيف نوفق ما بين وجود هذا العدد الضخم من المنبوذين مع وجود رحمة الله وإرادته في منح الجميع وسيلة صنع خلاصهم؟» سنة 1901 : «وكيف تؤثر النار على النفوس؟» 1902 .

وأمام هذا السيل من الأسئلة يقف اللاهوتيون صامدين . ومجلة «صديق الإكليروس» التي صدمها الأمر رفضت الإتهام بأنها تريد استخدام الخوف للاحتفاظ بالمؤمنين تحت سيطرتها وترسل مروّجيه إلى . . . جهنم : «هذا الإعتراض خاطىء حتماً وإهانة خطيرة توجَّه إلى رجال دين . إنه نميمة بشعة تستحق العقاب أمام الله وحتى أمام العدالة الإنسانية ؛ أمَّا بالنسبة إلى سائر الأمور فتعتبرها المجلة ثمرة «حساسية عصرية زائفة» وأنه «إذا كانت جهنم غير موجودة فلا يُظنَّنَّ أن الإنسان بحاجة إلى أن يرهق نفسه كثيراً من أجل تفاديها» .

يجب إذاً ترسيخها . وتجتر المجلة كل الحجج القديمة لمصلحة العقاب الأبدي ، ومن ضمنها الحجج الزائفة ، لأن ما يهمها هو النتيجة . هكذا فالقول إن جهنم مبررة لأن خطأ ارتكب ضد كائن سرمدي ليس صحيحاً ، لأنه آنذاك تكون كل خطيئة ولو عرضية تستحق العذاب الأبدي . لا تستخدم هذه الحجة إلاَّ مع «العقول القليلة الذكاء» : ورب عقول أقل ذكاء من أن تدرك ضعف هذا البرهان فتتأثر به ، فيقضي هذا البرهان على الصعوبة التي تحول دون اقتناعها بأبدية العذاب : فتكون النتيجة الحاصلة جيدة» . وبالمقابل «إنه لدليل رعونة اقتراح هذا الجواب على عقول نيرة قادرة على أن تفهم أنه عديم القيمة» .

كل شيء يدعم وجود الجحيم مبرر حتى إن «صديق الإكليروس» لم تتردد سنة 1903 في أن تضعه في مركز الأرض مستندة بذلك إلى وجود البراكين . ولم تستطع المعارك الأخيرة أن تبني سداً في وجه موجة الإحتجاجات . والحقيقة ، أن الغالبية الساحقة من المسيحيين وحتى قسم من الملحدين الذين تنكروا حديثاً للدين

المسيحي ، ظلوا يحتفظون بشيء من الخشية والحذر والخوف ساعة دنو انتقالهم إلى العالم الآخر . وتشير التحقيقات الاجتماعية إلى أن هذا الخوف ظل يتزايد نسبياً . وفي مقاطعة بريتانيا السفلى ، في منطقة تميزت ، إلى حد بعيد ، بالبعثات الدينية الداخلية ، لاحظ إيف لامبير أنه منذ 1900 «كان الناس يخافون حقاً جهنم دون إفراط ، مع وجود بعض الإستفتاءات» أليس ذلك لأنهم يفكرون في القيام بما هو ضروري لتحاشيها؟» .

ويذكر آلان في «أحاديثه» هذا التطور قائلاً : «إن الخوف من جهنم مرض اختفى من بلداننا كما اختفى البرص . كنت أخاف كثيراً من الشيطان وأنا صغير لأني كنت أحمل على محمل الجد الأفكار المبتذلة في بلاغة الإكليروس» .

ولكن عندما شعرت أن لا والداي ولا أصدقاؤهم ولا حتى الكهنة أنفسهم يخافون من جهنم ، تحررت منها حالاً . [. . .] . أما الحياة الأخرى فيجب ألاّ نستعجل القول أن لم يعد أحد يؤمن بها . ولكن يبدو لي إجمالاً أن هذا الرجاء قد تَطَهَّر من الخوف . إن الفكرة الأقوى اليوم لدى الكاثوليك المخلصين هي أن أفضل انفعالاتنا لا يلجمها الموت . وذلك أن لنا أسبابنا لنرجو وجوداً آخر ينقذ فيه كل ما كان خيراً ويُنسى كل ما كان شراً» (1921) .

واستمر التطور على مدى القرن العشرين وشهدنا انهياراً حقيقياً للإيمان بالجحيم ابتداء من السبعينات (1970) . وفي مقاطعة بريتانيا السفلى أصبحت ملاحظات إيف لومبير المتشككة التي دونها في بداية العصر أحاديث تهكمية متحررة من الوهم . بل تحمل في طياتها الإتهام مثل «كيف استطاعوا أن يقنعونا بمثل هذا؟» ؛ كانت جمجمتنا محشوة بهذا الجحيم ، بالمطهر وبكل هذه الأمور ولكنهم الآن لا يتحدثون عنها . يجب أن تكون قد تلاشت» ؛ «جهنم ، آه ، لا أعرف إذا كانت لا تزال موجودة» .

والأرقام تؤكد أن الإيمان بالجحيم كان الأكثر تراجعاً بين جميع المعتقدات الدينية التقليدية . فقد تبين ، استناداً إلى تحقيق أجراه فريق دراسة أنظمة القيم الأوروبية سنة 1981 ، أن 75٪ من الأوروبيين يؤمنون بالله و40٪ يؤمنون بالجنة و25٪ يؤمنون

بالشيطان و23٪ يؤمنون بجهنم . لا تزال هذه الأرقام مرتفعة نسبياً . لقد تبدل المعدل من 27٪ في إنكلترا إلى 14٪ في المانيا . هكذا ، ففي المسيحية القديمة ، وبعد خمسة عشر قرناً من التبشير بجهنم أقل من ربع الشعب يحتفظ ببعض الإيمان بجهنم وهو أمر لا يستحق الذكر بالنسبة إلى جهنم الكلاسيكية .

لأن علم اللاهوت تطور كثيراً فيما يخص هذا الموضوع .

II ـ انكفاء جهنم المسيحية

والشيء الأكثر بروزاً هو ما نستنتجه من أنه بعد قرون من الإلحاح الإستحواذي على العذاب الأبدي ، لف صمت مطبق هذه النقطة المحيرة من العقيدة . وآخر تدخل بابوي من النوع التقليدي كان تدخل الباب پيوس الثاني عشر الذي أكَّد في 23 آذار/مارس سنة 1949 : «أن التبشير بالحقائق الإيمانية الأولى وبالنهايات الأخيرة ليس فقط لم يفقد شيئاً من فرصه في أيامنا ولكنه أصبح حتى ضرورياً وملحاً أكثر من أي يوم مضى ، حتى الإنذار بالجحيم . لا شك أنه يجب معالجة هذا الموضوع بكرامة وتعقل . ولكن بالنسبة إلى جوهر هذه الحقيقة ، فعلى الكنيسة تجاه الله والناس واجب الإخبار عنه وتعليمه بدون أي تلطيف ، وكما أوحى به المسيح : وليس من حالة زمنية بإمكانها أن تخفف من حتمية هذا الواجب» .

ومنذ ذلك الحين لم يصدر شيء ، أو تقريباً لا شيء ، بل تلميح مختصر من المجمع الڤاتيكاني الثاني دون أي ذكر لكلمة «جهنم» ، ونداء خجول للبابا بولس السادس سنة 1971 . تلميحات نادرة وغامضة في هذه الوثيقة أو تلك حول الآخرويات . والكردينال راتسينغر بالذات الذي يأسف سنة 1989 «للإختصار الجذري» الذي طرأ على هذا الموضوع في الأحاديث الكنسية ، لا يخصص هو للجحيم سوى أربع صفحات من صفحات كتابه المئتين والسبعين والمدعو «الموت وما وراءه» .

أما وسائل الإعلام الكاثوليكية ، من مجلات شعبية وعلمية ، فقد تخلت تماماً عن الفكرة ، التي اختفت أيضاً من المواعظ ومن اللغة الكنسية . واللفظة المرهقة بماض ثقيل الوطأة حذفت أيضاً من المعاجم الدينية التي تكتفي تحت مادة «الأخرويات» بأنَّ

تلمح ، خفية وبكثير من الغموض ، إلى مصير مستقبلي تعيس للذين رفضوا محبة الله . ويصرح المعجم اللاهوتي سنة 1988 بخجل : «تعبر جهنم ، على أي حال ، عن نطاق الشر الذي يضعه الإنسان والذين لا يستطيع الله أن يحوله إلى خير ولكن يضطر إلى الإقتصاص منه اقتصاصاً أبدياً» . وجاء في كتاب «الإيمان» سنة 1976 للاهوتي ت .راي ــ ميرميه : «يستطيع الإنسان أن يمتنع عن أن يحب» وهذه بالضبط الإمكانية التي تعلنها فكرة الجحيم» . والتعريف الذي أعطاه كارل راهنر ليس أكثر دقة : «إن عقيدة جهنم تعني هذا : إن حياة الإنسان مهددة باحتمال سقوط أبدي حقيقي ، تهديداً يستمر في واقع أنه يستطيع التصرف بكل حرية بمصيره ويمكنه بالتالي الإبتعاد عن الله» .

إن موقف الكنيسة الرسمي تتضمنه «ملاحظة دائرة تعليم الإيمان حول الحياة الأبدية والعالم الآخر» التي صادق عليها البابا يوحنا بولس الثاني سنة 1979 . وتعلن «الملاحظة» أن الكنيسة «تؤمن بأن العقاب ينتظر دائماً ، الخاطىء الذي سيحرم من رؤية الله ونتيجة هذا العقاب على كيانه كله» . غير أن المستند يدعو إلى الحذر : «يجب تفادي خطر التمثلات الخيالية والكيفية لأن التمادي فيها يشكل ، إلى حد كبير ، جزءاً من الصعوبات التي يصادفها الإيمان المسيحي [. . .] . فلا الكتب المقدسة ولا علم اللاهوت تقدم لنا أضواء كافية عن صورة العالم الآخر» .

ويحاول اللاهوتيون إعادة صياغة المعتقد القديم ، ولكنهم غارقون في حيرة حقيقية فلا يعثرون على الكلمات المناسبة . ويعترف معجم اللاهوت المسيحي لسنة 1977 بقوله : «عندما لا نعرف شيئاً يستحيل علينا ألاّ نقول شيئاً . لا نعرف إلاّ شيئاً واحداً وهو أنه : إذا لم نحارب الخطيئة بضراوة تكتمل جهنم فينا وبواسطتنا» . هذا التوجه الجديد ، الذي يمثل الموقف من الجحيم وكأنه فشل الحرية الإنسانية العاجزة عن إيجاد أو خلق معنى الوجود ، يتفق في العمق مع المفاهيم الفلسفية المعاصرة .

ومنذ القرن التاسع عشر ، ويا للمفارقة ، انبرى الشعراء الفلاسفة الملحدون لإعادة تحديد جهنم . كان لهذه الجهنمات الجديدة التي كانت أرضية بحتة ، نتائج ما ورائية استطاعت أن تتمم أفكار اللاهوتيين .

III ـ الجهنمات الجديدة (القرن التاسع عشر)

في حدود السنة 1880 ، ينجز أوغست رودان عملاً ضخماً هو باب الجحيم ، وضع على مدخله تمثال «المفكر» الشهير . إنه عمل رمزي ، إذا صح القول . لقد اكتشف القرن التاسع عشر جهنم الأرضية . وتحول تفكير المفكرين الغربيين من العالم الآخر الذي استقطب الإنتباه لقرون عديدة ، ليتجه نحو العالم الآخر . واكتشف أن المعلومات المهيمنة التي وضعت في عالم المثل ليست في الواقع سوى إسقاطات للحقائق النسبية في هذا العالم . ومزّق القرن التاسع عشر غشاء الوهم عن العقول . وبعد أن غاصت البشرية في تأمل العالم الإلهي بدأت تنظر إلى نفسها في مرايا علم الإجتماع وعلم النفس والتاريخ والجغرافيا والفلسفة . وكان ما وجدته مأساوياً . لا أثر لأي نظام إلهي كان ، بل على العكس فوضى يكون الحق الأفضل فيها هو حق الأقوياء ، إذ يعني الخير فقط مصلحة العدد الأكبر ، أي الشر الأقل . واكتشفت أن الحياة حركة عقيمة وسط آلام لا هدف لها ولا أي معنى . «إنها قصة يرويها مجنون ، مليئة بالضوضاء والغضب ، ولا تعني شيئاً» قال شكسبير على لسان مكبث (5, V) .

باختصار لقد اكتشف القرن التاسع عشر أن جهنم هي على هذه الأرض . هذا ما عبر به الشعراء «الملاعين» الرائون ، على طريقتهم ، عن الحالة الإنسانية . وهذا ما قاله بودلير في «أزهار الشر» وهو مدرك أنه يغرق :

«انحدري انحدري ، أيتها الضحايا البائسة

انحدري في طريق جهنم الخالدة» .

ويستنتج ڤرلين في قصيدته «فصل في الجحيم» ، «وكان الشقاء هو إلهي» . ويقول رانبو الذي يصل إلى حد استنكار جهنم المسيحية . «أنا أؤمن بالجحيم ، إذاً أنا فيه ، إنه إعدام للحقيقة ، إنني عبد معموديتي . يا والديّ ، لقد صنعتما شقائي وشقاءكما . يا للبريء المسكين ! لا تستطيع جهنم مهاجمة الوثنيين ، أهذه بعد حياة ! وفيما بعد ستكون متع الدينونة أبعد غوراً ، إثم واحد وسرعان ما أغوص في العدم ، بموجب الشريعة الإنسانية [. . .] . يجب أن يكون لي جهنم للغضب ، جهنم للكبرياء ، جهنم للكسل ، جوقة جهنمات . إنني أموت من العياء ، إنه القبر ، أنا صائر إلى

الديدان ، إلى رعب الرعب ! أيها الشيطان المهرج ، أتريد أن تقضي عليّ بسحرك ، إني ألتمس ، إني ألتمس طعنة من مذراتك ، جذوة من نار» . ويقوم لوتر يامون برحلة لعينة إلى جهنم . وكانت محاولة يائسة لطرد الشياطين من جهنم الأرضية والقضاء على مخاوف الطفولة . ويستمر الشعراء الملاعين في السير على خطى الرؤى الرهبانية وجهنم المسيحية الشعبية .

ويحل الفلاسفة محل اللاهوتيين الخائري القوى . شوبنهور (1788 - 1860) هو نقيض لايبنتز ، المتشائم الكامل . إن عالمنا شر العوالم الممكنة . ونتيجة إرادة فاسدة . ليس هو بالنسبة إليه سوى عالم الألم : «الألم هو الصورة التي بها تتراءى الحياة» . نحن من نخلّد جهنم هذه بإرادة الحياة الشيطانية التي يجب أن نتجاوزها لنصل إلى العدم ، ويرى فون هارتمان (1842 - 1906) أن ما يسميه الإنسان تقدماً ليس سوى السياق الذي بواسطته نعي تعاستنا تدريجاً ، الأمر الذي يقود حتماً إلى تدمير إرادة العيش . ووراء هؤلاء الفلاسفة ، تبرز الغنوصية والمانوية ، ولكنهما متلفعتان باليأس : لا يمكن لإله الخير أيّاً كان أن يوازي قوى الشر» .

منذ بدايات العالم وجهنم تتقدّم ، إنها تتطور ، والإنسان نفسه هو الذي يطوِّرها وهو لا يفتأ يتقن وسائل التعذيب والتدمير الذاتي . وإليك ما يقوله ليوپاردي - 1837) (1798 : طبيعة الإنسان هي تعاسة حتمية في تطور مستمر . والطبيعة هي آلة جهنمية معدَّة للتنكيل بنا جسدياً ومعنوياً بتسليطها علينا الأمراض والشيخوخة ، وحتى الحب ، صفوة التعذيب : «والطبيعة هي التي تدفع الإنسان إلى الحب كي تمزقه فيما بعد بالفراق والموت : «أمن أجل أن تعذبهم بأداة من سعادة؟» .

وكيركيغارد (1813 - 1855) من جهته يكشف عن الجحيم في برهان مُضْنٍ ذي حدين هو في أساس الوجود البشري : الإنفتاح على الآخرين في الموت من أجل الذات ، أو الإنغلاق على الذات في أنانية مشوَّهة .

ويريد نيتشه أن يتجاوز جميع هذه الجهنمات الوجودية بوسيلة يائسة : يتقبلها بحماسة ويقتنع أنها تتفق ورغبته : «هكذا كنت أريدها ، هكذا أريدها الآن وهكذا سأريدها دائماً !» . وبهذه الطريقة يلجأ إلى الحل الرواقي ، وهو أن نحب قدرنا لكي

نتوهم أننا أسياده ، أن نصبح من نوع الإنسان الأسمى مقتنعين أن الله قد مات وأن علينا أن نأخذ مكانه ، وننتصر على الشر المعنوي مجتازين حدود الخير والشر . إنها لإرادوية يائسة تموّه تشاؤماً تاماً وتعترف بفشلها بانتحارها .

ويستغل الروائيون هم أيضاً هذه الجهنمات الأرضية . أليست الملهاة البشرية[1] (La comédie humaine) والروغون: ـ ماكارت[2] (Les Rougon - Macquart) سوى رحلتين حديثتين إلى الجحيم؟» .

كيف لا ندهش لأوجه الشبه بين الرؤى الدانتية والعالم الزاخر الحاقد المنفّر ، المثير للاشمئزاز القاسي المهتاج بعذاب نار الطمع الداخلية ، بتنكيل المصلحة الشخصية والغريزة ونار القهر الاجتماعي الخارجية ولؤم الآخرين ، هذه الأمور يصوّرها لنا بلزاك وزولا والآخرون؟ وفي روسيا يطارد تولستوي ودوستويفسكي جهنم المختبئة في البنى الاجتماعية وفي قلب الإنسان : جهنم الفقراء وجهنم الوعي الفردي المسجون بين وخز الضمير والضيق . في رواية «المهووسون» (Les possédés) لدوستويفسكي .

وتصبح جهنم ضرورية في اللحظة التي تزول فيها ، ويجب إيجادها إذا لم تكن موجودة . هذا ما يعتقده المشترعون ومؤسسو العقائد والمصلحون الاجتماعيون . وبعد أن أنكرها أكثر اليعاقبة يستخدمها نابوليون لترسيخ سلطاته : تَعد التعاليم الإمبراطورية أولئك الذين لا يقومون بواجباتهم الدينية «بالعذاب الأبدي» . وفي عهد الإصلاح ينبري جوزيف لوميستر للدفاع عن جهنم دموية يحكمها إله جلاّد . لقد وَرِثَتْ مفاهيمه المهووسة بالدم والآلام المركيز دوساد أكثر مما ورثت اللاهوت الكاثوليكي الذي يظل ، يا للغرابة ، يقتبس منه .

إن الحاجة إلى جهنم بادية عند مكوّني المجتمعات الحديثة ، وعند الطوباويين الذين يحلمون بعالم أفضل وحتى عند الملحدين . وهكذا يتوقع الفيلسوف المغالي في الإيجابية ، أوغست كونت في ما يدعوه «حكم المجتمع» ، يتوقع شيئاً يعادل الدينونة

(1) عنوان يشمل مجمل كتب بلزاك 1799 ـ 1850) ابتداء من طبعة سنة 1842 . ـ م ـ .

(2) مجموعة من 20 رواية لأميل زولا نشرت ما بين 1871 و1893 تشكل «التاريخ الطبيعي والاجتماعي لعائلة في ظل الامبراطورية الثانية ـ م ـ .

الخاصة والجحيم ، ألا وهو «صحراء المغضوب عليهم» . ويتسنى لنا أن نقرأ في التعاليم الوضعية أنه «بعد الموت بسبع سنوات وعندما تتلاشى جميع الشهوات المثيرة وقبل أن تكون أفضل الوثائق الخاصة قد فقدت تأتي دينونة شخصية ، يستمد الحكم المجتمعي فيها جذوره من الحكم الإلهي ، لتحديد مصير كل إنسان تحديداً غير قابل للإعتراض . ويُنقل سائر «الصالحين» إلى «النطاق المدني» . «أما في الحالات الإستثنائية للأعمال الشنيعة البارزة فينكشف الهوان عن نقل العبء المشؤوم إلى صحراء المنبوذين بين المعذبين والمنتحرين وعشاق المبارزة . إن وجود كائنات شريرة يبرِّر ، في نظر أوغست كونت ، الحاجة إلى مفهوم للموت الأبدي . وهكذا يؤكد الدين الإيجابي فكرة فويرباخ القائلة : ينقل الدين إلى التصور الأرضي والروحي ، رؤياه عن العالم المثالي ، ويتوجب عليه أن يستنبط وسيلة للتخلص ، وبشكل حاسم ، من الأشرار الذين يستحيل ردهم إلى الصراط المستقيم .

وربما لهذا لم تكن جهنم ماثلة يوماً كما كانت في القرن التاسع عشر وكأن تواريها عن العالم الآخر جعلها تنحسر على الأرض . وراح القرن العشرون ينشط هذه الحركة .

IV ـ جهنم المعاصرة

استحق القرن العشرون ، في نظر الكثيرين ، لقباً لا يحسد عليه كثيراً . ألا وهو لقب «قرن الجهنمات» وذلك بسبب حربيه العالميتين ، بالإبادات الجماعية ، بقنبلته الذرية . بأسلحته الكيميائية ، بجماهير العالم الثالث الجائعة المحرومة من المعاملة الإنسانية ، ببطالته ، بتلوُّثه ، بأنظمته الكليانية (التوتاليتارية) ، بديمقراطياته الفاسدة ، بانفجاره السكاني ، بمعتقلاته ، بمخيمات النفي (الغولاغ) ، بمخدراته ، بمرض السيدا ، فأي قرن يستطيع أن ينازعه هذا الوسام الشيطاني . والحقيقة أنه بالإمكان التوصل إلى القيام بعمل أفضل ، وقد يأخذ ذلك القرن الحادي والعشرون على عاتقه ، ولكن الواقع يتجاوز أحياناً المخيلة الجهنمية عند رهبان القرون الماضية : فبالنسبة إلى موريس كلافيل يصر العالم المعاصر على إثارة صور جهنم التقليدية .

ويظن آلان ، الذي لم يعرف إلاّ شعوراً مسبقاً بذوق العصر ، أن البشرية كانت في المرحلة الثالثة من مراحل جهنم : فبعد جهنم هوميروس المحكومة بالقدر الخارجي ثم

جهنم ڤرجيل ، محصَّلة القدر الداخلي ، تأتي جهنم دانتي ، جهنم الخيار الحر ، جهنم تعذيب الذات .

إن الصدمات العنيفة على مستوى الكرة الأرضية دفعت برجال الفكر إلى تعميق مفهوم جهنم ، فلم تكن نتيجة تحقيقاتهم مطمئنة ؛ فجهنم هي في أصل الحالة البشرية والحياة الجماعية ، وبتعابير أخرى ، هي ما ينادي به المفكرون المعاصرون الذين تتكامل نتائج أبحاثهم أكثر مما تتناقض .

كل ذلك قائم في العلاقات بيني وبين الآخرين ، جهنم الأنا التي تنعزل لتتأكد والتي تحقق بحسرة عزلتها الأساسية . كتب مارسال جوهاندو : «حيثما أكن تكن إرادة حرة ، وحيثما تكن الإرادة الحرة تكن جهنم المطلقة والأبدية بالقوة» . جهنم مكملة للاتصال القسري بالآخرين . مسرحية سارتر «الباب المقفل» هي كل الحالة الإنسانية ، إنها مأساة أبطالها ثلاثة : أنت وأنا ، تحت نظره هو ؛ بما أنه حكم علي بأن أعيش مع الآخر ، فلا وجود لي إلاّ به وتحت أنظاره ، ولا أستطيع شيئاً لتعديل صورتي ، أهرب من ذاتي : «والآن هذه هي جهنم ، ما كنت لأصدق أبداً [. . .] . أتَذْكُرُ : الكبريت ، الحطب ، المشواة [. . .] . يا للدعابة ، لا حاجة إلى مشواة : جهنم هي الآخرون» .

إنه قلق وجودي جهنمي يضعه مارتان هايدغر في اليأس الذي يثيره ذوبان الأنا في اللامسمَّى «هو/أحدهم» . ولهذا الذوبان «تسري رعشة القلق بلا انقطاع داخل الكيان الإنساني» . إن وعي استحالة هذا الموقف تضاعف العذاب : أعيش «غريباً» من أجل الآخرين ومن أجل الكون ، مرمياً في عالم لا هدف له ولا نهاية : هذا هو الجحيم في نظر كامو .

يكتب دينو بوتساتي[1] (Dino Buzzati)) وصفاً أخّاذاً لزيارة إلى الجحيم في مجموعة أقاصيصه بعنوان لو كا (Le K.) ، يستعيد فيها معاني دانتي ، وملخصه أن صحافياً يقوده تقني من مدينة ميلانو يجد مدخل مملكة الشيطان : وهي عبارة عن مدينة كبيرة يخنقها ازدحام السيّارات . إنه الجحيم اليومي : تتمادى أمامي على مرمى

---

(1) صحافي وروائي إيطالي (1906 - 1972) ــ م ــ .

البصر عذابات الناس ، كنت أراهم يتجادلون ، يرتعشون ، يقهقهون ، يقفون ، يقعون ، يقفون من جديد ، ثم يقعون ، يتضاربون ، يتحادثون ، يبتسمون ، يبكون ، يشتمون ، وجميعهم على أمل الدقيقة القادمة» .

بهذه الرؤيا العصرية يقفل تاريخ جهنم الذي يعود ، بعد دورة من ثلاثة آلاف عام ، إلى المفاهيم السومرية : كل شيء يلهو في هذا العالم . ويكتب إيطالو كلفينو في «المدن غير المنظورة» : «إن جهنم الأحياء لن تأتي ؛ وهي إذا وجدت فإنها هنا ، جهنم التي نقيم فيها كل يوم ، التي نكوِّنها بكوننا معاً» .

إن جهنم هذه القديمة قدم الإنسانية ستبقى ما بقيت الإنسانية . والسؤال القديم الذي يطرحه الإنسان على نفسه منذ غلغامش وإنكيدو يبقى بلا جواب ، والسؤال هو : لماذا؟ .

المراجع

تحتوي كل حضارة ثروة أدبية ضخمة حول الجحيم ، ولكننا لن نشير هنا إلا إلى بعض الأعمال التوليفية .

قام ج . هولان بدراسة المعنى العميق للخرافات الجهنمية في كتابه : «الوجه الخفي للزمن» . «تصور العالم الأخر» ، باريس ، فايار 1985 . وألقت أعمال ج . دولومو الضوء على الكثير من مظاهر الخوف من الجحيم . في العصر الحديث خاصة وبنوع أخص : «الخطيئة والخوف» . «التأثيم في الغرب» (القرن الثالث عشر ـ القرن الثامن عشر) . باريس ، فايار 1983 . وفي الموضوع ذاته كتب پ . كامپورازي : «الخوف من جهنم» ، «تصورات الدينونة والخلاص في فجر أوروپا الحديثة» . ترجمة انكليزية ، كامبريدج ، پوليتي پريس 1991 . ويلقي ج . لوغوف الضوء على أوجه عديدة من معتقدات جهنمية ، في العصور الوسطى ، في كتابه : «ولادة المطهر» ، باريس ، غاليمار ، 1991 . وكذلك إ .ج بيكر في مؤلفه : «إسهام في دراسة مقارنة لرؤى السماء والجحيم في القرون الوسطى» ، مع اقتباسات خاصة من النصوص الانكليزية المتوسطة بلطيمور 1988 . وحاول ج . مينوا كتابة توليف شامل في : «تاريخ الجهنمات» ، باريس ، فايار ، 1991 .

ويمكن ان نستأنس بخصوص وجهة النظر اللاهوتية الكاثوليكية ، حول مادة «جحيم» ، «بمعجم اللاهوت الكاثوليكي» ، باريس ، ليتوازي 1913 . وقد أكملتها مادة أكثر حداثة في «معجم اللاهوت المسيحي» باريس ، ديكليْه دوبروير 1977 . يقدم العمل الجماعي حول «الجحيم» من مجموعة «الايمان الحيّ» ، باريس 1950 ، كتاباً يحتوي عدة مقالات ، كمقال ج . غيتون حول «الجحيم في المفهوم المعاصر» .

ومقال م . كاروّج «صور من الجحيم في الأدب» . ومقال ب . دوريڤال «الجحيم في الفن» ؛ ويعطي أ . ميشال عن «الموت الدينونة والحياة الأخرى» باريس ، بلود وغاي 1929 ، فكرة جيدة عن التنقيح النهائي للمفاهيم اللاهوتية في ذروتها حول الجحيم ، في بداية القرن العشرين .

بالنسبة الى الحضارات القديمة ، يُراجَع ج . دوميزيل في كتابه «الديانة الومانية القديمة» ، باريس ، پايو 1966 .

وم . إيلياد «الشامانية والتقنيات القديمة للانجذاب» ، باريس ، پايو ، طبعة ثانية 1968 . وبودج في «السماء والجحيم المصريان» لندن 1906 .

ج . ميو «أوجه الجحيم التقليدية» ، لندن ، 1903 .

هـ .ر . إليس «الطريق إلى الجحيم» و«دراسة في مفهوم الموتى في الأدب النروجي القديم» كمبريدج 1943 .

وفيما يختص بالعهد القديم :

ن .ج . ثرومپ «المفهوم البدائي للموت والعالم الآخر في العهد القديم» . بيبليا وأوريئتالا ، روما 1960 .

وبالنسبة إلى العالم الإسلامي :

س . الصالح : «الحياة الآتية استناداً إلى القرآن» ، باريس 1971 .

وبالنسبة الى المظاهر الفولكلورية :

پ . سيبيلو : «الفولكلور في فرنسا» . «الأرض وما تحت الأرض» باريس ، 1904 ـ 1906 .

فهرست

الفصل التاسع .ـ تحولات جهنم

منشورات عويدات 1003 / 1996

GEORGES MINOIS

HISTOIRE DE L'ENFER

Traduction arabe
de
Antoine I. HACHEM

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Liban

زدني علماً
223

تاريخ جهنم

إن فكرة جَهَنّم أو الجحيم هي سمة ثابتة لكل الحضارات. نجدها في أقدم النصوص البشرية مرتبطة بالمفاهيم الدينية الأولى، كما نجدها في الكتابات المعاصرة الملحدة. وجهنم مكان كئيب مشؤوم يقع في العالم الآخر أو هي حالة ضيق وغم وجوديين نعيشها بدءاً بهذه الحياة. وهي متعددة الأشكال وقابلة للتكيف تبعاً لنماذج الحضارات.

هي قديمة قدم البشرية الواعية ومرتبطة بالحالة الإنسانية التي تلقي فيها عذاباتها وأحقادها وتناقضاتها وعجزها كما أن الجنة هي تسام لآمالها، لأفرادها وإرادتها السعيدة. وجهنم، سواءً كانت، أو لم تكن، مرتبطةً بالعقاب والدينونة، وسواء كانت أزلية أم عابرة، فهي مرآة لفشل كل حضارة في حل مشاكلها الاجتماعية وهي مصدر الغموض في الحالة الإنسانية. وطالما ظل الإنسان عاجزاً عن حل لغزه الخاص فإنه سيتصور جهنماً ما.



EDITIONS OUEIDAT
B.P. 628 Beyrouth